

"بسم الله الرحمن الرحيم"

جامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة بأسبوط
الدراسات العليا والبحوث
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

الدعوة الإسلامية في العصر المملوكي

رسالة جامعية للحصول على درجة التخصّص "الماجستير"

إعداد الباحث
أحمد رفاعي إسماعيل

إشراف
الأستاذ الدكتور / هاشم عبد الظاهر إبراهيم

عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية بقنا
والأستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بأسبوط

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

شكر وتقدير وإجلال

* شكر وتقدير واجلال *

أما الشكر فله وحده الذى من على بهذا الفضل العظيم
وهذه المنزلة الرفيعة ، لذلك فأننى مقبلة - سبحانه
وتعالى - بالشكر إلى أن يرت الأرض ومن عليها
* وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها *

وأما التقدير والإجلال فلا ستاذى وشرفنى الغاضل
والأب الرحيم الأستاذ الدكتور / هاشم عبد الظاهر
الذى لمست فيه خصالا قلما اتصف بها غيره . وهذه
حقيقة لا مجاملة ، وواقع لا خيال .

لقد وجدت طيب القلب ، ضاقي السريرة ، ذا نزاهة
وخلق كريم فقد أمرنى بإرشاداته وتوجيهاته وكان يحمى
هوى أكثر من نفسى فجزاء الله عنى وعن الإسلام والمسلمين
غير الجزاء

* إِنَّ رَّبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ *

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قال "وَمِنَ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (١) وأشهد ألا اله الا الله المعز المذل السميع البصير الذي إن أراد بعيد خيرا ففقهه في الدين .
وأصلي وأسلم على من عثرته خير عثره ، وشجرته خير شجرة ، نبتت في حرم ،
وبسقت في كرم ، النبي الأمي الذي علم المتعلمين والذي نشر بالساحة والآفاق
مبادئ الإسلام والدين ، فأثارت بنوره البلدان شرقا وغربا .

أما بعد :

فإن الناظر بعين المستطلع لأغوار التاريخ الإسلامي يعلم بما لا يدع مجالا
للشك أن الدولة المملوكية شغلت فترة كبرى وزمتنا طويلا من مسيرة الإسلام
والمسلمين ومن تاريخهم المشرق العريق ، لقد شكلت الدولة الإسلامية
المملوكية هي ومثيلاتها من الدول الإسلامية القلعة الحصينة لهذا الدين ،
ووقفت تلك الدول شامخة في وجه الطامعين سواء من الصليبيين أو التتسار
أوغبرهم من استأصل شأفة هذا الدين ، فما زلنا نذكر إلى يومنا هذا
بطولات المنصورة ، وعين جالوت ، وسقوط قلاع الصليبية العالمية ، والتتسار
الهمج تحت معاول دولة المماليك المسلمة .

هذه الدولة التي لم تكن عربية المنشأ ، ولكنها أثبتت بكل جسارة أن
الإسلام لم يأت لأناس دون أناس ، وأن دعوة هذا الدين جاءت إلى الناس
جميعا ، أسودها وأبيضها ، أحمرها وأصفرها .

(ب)

• إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ^(١) •

ونظراً لما قدمته تلك الدولة من خدمة للإسلام والمسلمين اخترت عنها

موضوعي هذا •

✽ سبب اختياري للموضوع :

١ - إِنَّ الدولة المملوكية أثرت تأثيراً كبيراً في تاريخ الإسلام والمسلمين
بفضل دعائها ومنشأتها وانتصاراتها المدوية التي أنقذت البشرية
من بحر من الدماء •

٢ - تعرضت الدولة المملوكية إلى كثير من الغبن والظلم من جانب بعض
الباحثين المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين ، وقالوا
عنها إنها كانت دولة الرقيق والعبيد ، وقالوا إنها أكلت أموال
الشعب ، وإنها دولة الصراعات والنهب والسلب ، فكان من واجبي
كمسلم أن أدفع عن تلك الدولة المسلمة الغبن والجور الذي أحاط بها •

٣ - حققت دولة المماليك في مجال الدعوة الإسلامية نظاماً يمكن أن تستلهم
عليه دعوة المسلمين في أي عصر من العصور بنظامها ونظمها الإسلامية
ومنشأتها الدعوية واهتمامها بالعلم والعلماء والمساجد والمدارس العلمية •

٤ - تحقيق العبرة المرجاة القائلة أن المتمسك بحبل الله ما ضل وما قفل
وما ذل وهذا ما شاهدناه في تلك الدولة ، فعندما تمسكت بحبل
الله المتين قويت وعزت وانتصرت ، وحين تخلت بعض التخلي حدثت
فيها الفتن والنزاعات وكان ذلك سبباً لسقوطها في النهاية ، والله

(ج)

الأمر من قبل ومن بعد يعزم من يشاء ويذل من يشاء .
محتوى البحث
منهجى فى البحث :-

وقد اشتمل هذا البحث على : مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة

أما المقدمة : فقد ذكرت فيها :-

أ - سبب اختيارى للموضوع .

ب - منهجى فى البحث فيه .

وأما الباب الأول :

عنوانه بعنوان * الماليك * وقسمته إلى ثلاثة فصول :-

الفصل الأول : تحدث فيه عن الماليك من حيث أصلهم ونشأتهم والاختلاف

حولهم وكيفية جلبهم وكيفية تربيتهم ودرهم فى دولة الإيويين السابقة لهم .

الفصل الثانى :- تحدث فيه عن الحياة السياسية والاجتماعية فى العصر

الملوكى .

الفصل الثالث : الحركة العلمية فى العصر الملوكى تحدث فيه عن تنظيم

التعليم وأنواعه وبعض مدارسها وختمت الفصل بعظاير الحركة العلمية فى ذلك

العصر وأسباب ازدهارها .

وأما الباب الثانى :

فقد عنوانه بعنوان * المظاهر العامة للدعوة الإسلامية فى العصر

الملوكى * وهو أهم الأبواب بل هو لب الرسالة وعمودها وقد احتوى على أربعة

فصول

الفصل الأول : تحدث فيه عن دور سلاطين الماليك في خدمة الدعوة

الإسلامية .

والفصل الثاني : تحدث فيه عن دور سلاطين الماليك في الدفاع عن البلاد

الإسلامية .

والفصل الثالث : تحدث فيه عن دور الفتوحات الإسلامية في العصر المملوكي

وأثرها في خدمة الدعوة الإسلامية .

والفصل الرابع : تحدث فيه عن أبرز علماء العصر المملوكي وأثرهم في نشر

الدعوة الإسلامية .

وأما الباب الثالث والأخير فقد عنوانته بعنوان " الدولة المملوكية بين الشبهات

والسقوط " . وقد اشتمل ^{على} فصلين :

الفصل الأول : تحدث فيه عن المزاعم والمفتريات التي أفتريت على تلك الدولة

المملوكية ، وقد رفعت ^{رافعت} فيهما وفقى الله الغيب عنهم ،

الفصل الثاني : تحدث فيه عن أسباب وكيفية سقوط ونهاية دولة الماليك

الإسلامية .

وقد زيلت هذا البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .
وبعد : فقد كانت هذه السطور لراقعها بالشكر العميق وقد تمت فيها قصدر

طاقتي ، غير أن سياط الزمن أصابت بعض نقاطها في مقتل ، وهذا إن دل

فإنما يدل على بشرتي وقلة حيلتي إن لم يسعفني رب العالمين ، فإن أصبت

فمن عند الله وإن أخطأت فمن نفسي ، والله الأمر من قبل ومن بعد هــ

مولاي ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

الباب الأول

الماليــك

ويشتمل على ثلاثة فصول :

- * الفصل الاول : نشأة الممالك
- * الفصل الثاني : الحالة السياسية والحياة الاجتماعية في العصر المملوكي
- * الفصل الثالث : الحركة العلمية في العصر المملوكي

الفصل الأول
نشأة الممالك

الباب الأول

الماليك

الفصل الأول

نشأة الماليك

أصل الماليك : حوال - أعمال

للبحث في طبيعة الماليك تثور تساؤلات عديدة مثل من هم الماليك ؟

هل هم أرقاء أم أحرار ؟ وكيف أصبح ملوك اليوم سلطان الغد ؟

وفي الحقيقة أنّ المؤرخين اختلفوا في هذا الشأن اختلافا كبيرا فمنهم من عامل الماليك في كتاباته على أنهم رقيق اغتصبوا الحكم دون أن تكون لهم أهلية الولاية لأمر المسلمين بل أن هؤلاء الكتاب لم يكتفوا بذلك بل حاولوا الحط من قدر سلاطينهم وأمرائهم في أكثر كتاباتهم بأنهم عرضوا بأصلهم^(١) للوضع وما مروا به من رقي وعبودية فكان ذلك التشهير والحط من قدر أولئك الرجال الذين كانوا يوماً من الأيام سادة هذه البلاد وحكامها .

ونفى عنهم البعض صفة الرق نهائياً مثل الدكتور/ عبد المنعم ماجد حيث يرى أن كلمة (ملوك) في أصلها اللغوي مستخرجة من فعل (ملك) لتعني الرقيق الذي يشتري بقصد تربيته والاستعانة به كجند وحكام على عكس لفظة (العبيد) مفرد ها (عبد) ومؤنثها (أمة) التي استعملت في العصر العباسي الأول . وذلك أن الإسلام يحوله الإنسانية كان يرفع من شأن الرقيق إذ أن لفظة العبيد تعني العبودية^(٢) والعبد يولد من الرقيق بينما الملوك يولد من

(١) انظر / راسم رشدي : مصر والشراسة ص ٤٥ القاهرة ١٩٤٨ م .

(٢) انظر / عبد المنعم عبد الماجد : طومان باي آخر سلاطين

الماليك في مصر ص ١٢ : مكتبة الانجلو المصرية

ط ١٩٧٨ .

وعليه مؤاخذات في نسب الروايات

وأرى إن

أبوين حرين . ويباع^(١) . ولكن نرى خلاف ذلك حيث المملوك الذى يولد من
أبوين حرين ويباع يعتبر رقيقا . إن أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم
استرقوا بعض الأسرى طبقا لقاعدة المعاملة بالمثل وهم لم يبيحوا الرق فى كل
صورة من صوره كما كان فى الشرائع الإلهية والوضع السابفة وإنما حصروه فى
الحرب المشروعة المعلنه من المسلمين ضد عدوهم الكافر^(٢) . أى أن أسير الحرب
يعتبر رقيقا رغم أنه من أبوين حرين . وبناء على ما سبق يمكن أن يكون المملوك
رقيقا ويؤكد ذلك ما ورد فى القاموس القويم فى تعريف لفظ (العبد) . فالعبد
بالنسبة لله الإنسان الحر أو الرقيق وكلاهما مملوك لله خاضع لحكمه وأراد الله
أما العبد بالنسبة للإنسان : الرقيق المملوك ويجمع على جموع منها عبيد
وعبد : كخدم ، وعبد : ومن ذلك قوله تعالى "وَمَا أَلْمِزْتَهُمْ^(٣)"
وخلاصة القول فى المالك الذين نحن بصدده الحديث عنهم : أنهم فى
الأصل رقيق مستجلب من أصول قفجاقية^(٥) تركية أو شركسية من جنوبى روسيا
القونجاز . وكان هؤلاء يصلون إلى القاهرة صبغانا عن طريق الشراسير
أو فتيانا أو أسرى حرب أو هزنا من دولة صديقة أو حليفة وفى القاهرة كانوا
يخضعون لتربية عسكرية أو إسلامية لعدة أعوام حتى إذا انتهى تدريبهم

(١) انظر د . أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامى ص ٢١٥ : ٢١٨ حيث

يتفق فى ذلك والدكتور عبد المنعم ماجد .

ويتفق فى ذلك لرأى د . راسم رشدى مصر والشراسة ص ٥ : ٤٨

القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) انظر السيد سابق : فقه السنة ج ٣ ص ٨٨ .

(٣) ابراهيم أحمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم ج ٢ ص ٣

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ م .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٦٣ .

(٥) قفجاقية :- تشمل بلاد القفجاق حوض الفلجة والأراضى التى حول بحر

قزوين .

المقدمة

جرى تحريرهم (عتقهم) وضمهم إلى السبعية العسكرية المملوكية^(١) .
فالثابت أن المماليك كانوا يعتقدون عند ما يسلكون في الوظائف السلطانية
أو بذلك اكتملت أهلية المماليك في تولي أمور المسلمين وذلك ما نراه واضحاً في
موقف العزيز بن عبد السلام حيث رفض مبايعة الظاهر بيبرس باعتباره مملوكاً
غير كامل الأهلية ولا تجوز له الولاية ولكن الظاهر بيبرس أثبت أنه أعنى فبايعه
الشيخ وعلماء ذلك العصر . ولكن كيف وصل مملوك اليوم سلطان الغد ذلك
ما سنتعرض له من خلال الآتي :-

أولاً : ظهور المماليك في العالم الإسلامي :

يرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي إلى ما قبل قيام دولتهم بأمد
طويل وربما كان أول من استخدمهم هو الخليفة المأمون العباسي ١٩٨ هـ -
٢١٨ / ٨١٣ - ٨٣٣ م إذ كان في بلاطه بعض المماليك المعتوقين ثم
استخدم الخليفة المعتصم العباسي ٢١٨ هـ - ٢٢٧ / ٨٣٣ - ٨٤٣ م فرسان حرس
التركان لتدعيم سلطانه^(٢) . وهكذا لعب المماليك دوراً بارزاً في تدعيم سلطان
الخليفة .

أدى

ثانياً : ظهور المماليك في مصر :

اعتمد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية التي قامت في مصر
سنة ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م على المماليك في مأذاه في القول بأنه أول من
استخدم المماليك في مصر في جيشه وجلبهم إليها بأعداد ضخمة . تأسيس
دولة

(١) انظر ابن العمري مسالك المماليك ص ٤٦

(٢) انظر د . علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣ النهضة

المصرية ط ١٩٦٣

رجاء المالِك من

قيل إنهم بلغوا أربعة وعشرين ألف ملوك ، رجاء ^١ التمكن من استقلال مصر عن الخلافة العباسية ولم يكن الأغشديون أقل من أحمد بن طولون في استخدام المالِك ^(١) . وكذلك لجأ الفاطميون حين انتقل لهم حكم مصر سنة ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٧١ م حيث كانوا في حاجة إلى جيش كبير يستطيعون به حماية سلطانهم فلجأوا إلى الأتراك وشراء المالِك . فلما قامت الدولة الأيوبية في مصر ٥٦٧ / ٦٤٨ هـ / ١٠٧١ - ١٢٥٠ م جلب سلاطينها أعدادا ضخمة من المالِك واعتمدوا عليهم في جيشهم وبنوا قوتهم وقد راجحت تجارة الرقيق من الجيش التركي والشركسي في أواسط آسيا وفي غربها فابتاع الملك الصالح نجم الدين أيوب عددا من هؤلاء الأرقاء فرباهم تربية عسكرية وأنزلهم بجزيرة الروضة وهو ^(٢) . سبوا بالمالِك البحرية وقد ارتقى عدد منهم إلى المناصب الكبيرة أمثال فارس الدين أقطاي وعزالدين أيك ، بيبرس وقلقون .

ثالثا : طريقة تربيتهم :

نولي

لعله من المناسب أن تلقى الضوء على تربية هؤلاء المالِك فالتربية تلعب دورا هاما في تكوين الشخصية وسلوكها وكانت تربية هؤلاء المالِك وتدريبهم تمر بمراحل متعددة ، فإن تجار الرقيق يجلبون أعدادا منهم ويعرضونها على السلاطين ، وكان السلاطين يختارون أحسنهم حجة وذكا ، فإذا تمت عملية الشراء وضعهم السلاطين في أبراج خاصة بهم ورتبوا لهم من الفقهاء

(١) انظر / د . فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المالِك

والصفول في الدولة المملوكية الأولى ص ٢٠ ودار المعارف ط ١٩٨٢ .

(٢) د . محمد محمد خليفة وذكى على سويلم : الأدب الغربي وتاريخه

والعلماء من يلقنهم الدين والعلوم ويأخذهم بملازمة الفرائض^(١) . ولعل ذلك يفسر بلوغ بعض سلاطين الماليك مرتبة العلماء كالسلطان الملك المؤسس وغيره .

ويفسر لنا أيضا الحرص البالغ لسلاطين الماليك في الدفاع عن المسلمين وجهادهم العظيم ضد الصليبيين والتتار والذي يبحث في تلك المعارك يتضح له أن هؤلاء القوم لم يجاهدوا لغرض من أغراض الدنيا وإنما لأعلاء شرع الله . فكانت تلك المرحلة من مراحل التربية بمثابة قواعد لبنان الدولة المملوكية . وبعد انتهاء هذه المرحلة ووصول المملوك إلى سن الشباب يوكل إلى مدرسين عسكريين لتلقينهم النظم العسكرية وفنون الحرب وبعد ذلك ينتقل لخدمة سيده ليلاحق بحرسه الخاص أو بدوياته أو بجيشه . وسواء كان عمله هنا أو هناك فإن مواهبه قد تدفعه إلى الصدارة^(٢) وتولي الحكم

رابعاً : كيفية انتقال السلطة من الدولة الأيوبية إلى الدولة المملوكية :

بعد أن مات الملك الصالح الأيوبي انتقلت السلطة إلى ابنه الملك العظيم توران شاه^(٣) . الذي نزل في قصر أبيه ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح

(١) انظر د . أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٢ ص ٢٢ . مكتبة النهضة ط ١٩٩٠ .

(٢) انظر المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) توران شاه : هو الملك المعظم توران شاه بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك المعادل أبي بكر بن الامير نجم الدين أيوب . كان أبوه قد ولاه حصن كيفا في الشرق ثم كان يستدعيه فلا يجيبه فلما مات والده استدعته شجرة الدر . انظر : عقد الجمان ج ١ ص ٢٣ .

نجم الدين أيوب ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بعبوته بل كانت الأمور على حالها والد هليز الصالحى والسوماط ومجى الأمراء إلى الخدمة على ما كان عليه الحال في أيام حياته وشجرة الدر تدبر الأمور للدولة^(١) مدعية مريض السلطان . ويدل هذا الموقف على قدرة وشجاعة شجرة الدر في مواجهة الموقف وتسيير الأمور . ولكن سرعان ما قتل السالك توارن شاه ٤ حيث قيل إنه أساء إلى السالك وتوعدهم . وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من شمع . وضرب رؤسها بالسيف حتى تنقطع ويقول هكذا أفعل بالبحرية^(٢) . فقتلوه شرفقتلة . فقيل إنه اشترك في قتله ثلاثة أشياء : السيف والنار والماء . حيث اجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بغراسكور وهجموا عليه بالسيوف . فهرب معظم منهم إلى البرج الخشب الذى نصب له بغراسكور ، فأطلقوا نسي البرج النار ، فخرج معظم من البرج هارباً طالباً البحر ليركب في جرافتسه فحاولوا بينه وبينها بالمنشأب ، فطرح نفسه بالبحر فأدركوه وأتوا قتله وكانت مدة إقامته في الملك من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياماً . وعقب قتله نادى كبار رجال الدولة شجرة الدر سلطنة على مصر وتلقبت بعدة ألقاب منها الملكة * عصمت الدين * شجرة الدر * والستر العالى والدة الملك الخليفة ودعى لها على المنابر ملكة المسلمين على أن الأحوال اضطرت على أثر توليها الحكم . فإن الخليفة العباسى دعى على أهل مصر أن تتولى امرأة

(١) انظر المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣ - القاهرة ١٩٧٠ .

(٢) انظر المرجع السابق ج ١ ص ٣٦ .

(٣) انظر العيىنى : عقد الجمان ج ١ ص ٢٦ - تحقيق د / محمد محمود

أمين . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

العرش . ولم يتمكن أمراء المماليك من أن يحصلوا على موافقته على اختيارها بل على العكس رد الخليفة العباسي على طلبهم بقوله " إن كان الرجال قد عدوا عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجالا . وتدل تلك الأحداث على السولا الخالص من المماليك لأستاذهم الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث إنهم بايعوا السلطان الملك المعظم توران شاه ولكنه قابل الإحسان بالإساءة فكان جزاؤه القتل ولم يطمح المماليك في توليهم السلطنة حيث سلطنوا زوجة أبيه شجرة الدر وقد موأ لها الولا والطاعة وأرادوا أن يصفوا على حكمها الشرعية ولكنهم فشلوا بسبب الأحداث التي وقعت من عصيان وتمرد الملك المغيت بالكرك^(١) واستيلائه عليها وعلى الشوبك واستيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق ووقوع الاضطراب في مصر مما أدى لاجتماع البحرية والأتراك وأجمعوا أنهم لا يمكنهم حفظ البلاد وأمر الملك لأمره^(٢) واتفق أمرهم على أن يفوض أمر الملك إلى الملك المعز عز الدين أيوب وكان أيوب عفيفا لا يمتنع

(١) الكرك : مدينة ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك والشوبك أقدم منها والكرك مدينة حديثة البناء كانت ديرا للربان ثم كسروا فوسعوا بناءه وأوى إليها أناس من النصارى فقامت لهم بها معاش وأوت اليه الفرنج فأدارت أسواره فصارت مدينة مشهورة ثم بنوا حصنا فكانت قلعة فاستولى عليها الفرنجة . وفتحت في زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب . انظر " ابن فضل الله العمري " مسالك الأنصار في ممالك الأنصار ص ٢١٢ تحقيق دورد ويتا كرافولسكنسى ٧٠٠-٧٤٩ هـ / ١٣٠١-١٣٤٩ م

(٢) الملك المعز هو أول ملوك الترك وهو السلطان الملك المعز عز الدين أيوب التركماني يقال انه في الأصل مملوكا لبنت فخر الدين بن تركماني الذي كان متولى الأعمال الخيرية وارتجع الى بيت الملك الصالح نجم الدين أيوب ولم تزل تنتقل به الا حوال الى الملكة البريار المصرية " بن أيوب : كنز الدر ج ٨ ص ١٢ .

أحدا حاجة ولا يشرب سكرًا^(١) وكانت سلطنته في أواخر ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ أغسطس ١٢٥٠ م ولكن لم تعز أيام خمسة حتى طالب الماليك الصالحون بأن يكون السلطان من بني أيوب من بين زملائه الأمير فارس الدين أقطاي والأمير ركن الدين بيبرس المنصور والأمير سيف الدين بلقيس الرشيدي . وتحت ضغط الماليك الصالحين اختاروا الملك الأشرف^(٢) ملكا وكان صغير السن وحدثت وقائع بين المعز أيك . والماليك الصالحين انتهت بعزل الأشرف من السلطة واشتغال الملك المعز أيك بالحكم وبذلك زالت الدولة الأيوبية وانتقل الحكم إلى الدولة المملوكية وقد سبق أن تزوج الملك المعز صاحب مصر من شجرة الدر ولكن لم يستمر ذلك الحال كثيرا حيث شاع الخبر أن الملك المعز صاحب مصر سيتزوج باينة صاحب الموصل فعظم ذلك على زوجته شجرة الدر وعزمت على الفتك به واتفقت مع جماعة من الخدم ووعدتهم بأموال عظيمة فركب المعز للعب الكرة وجاء منها فدخل الحمام ليغتسل فلما صار عريانا رمت الخدم إلى الأرض وخنقوه ليلا ولم يدربه أحد فأصبح الناس من الأمراء والكبراء على عادتهم للخدمة فإذا هو ميت^(٣) . ثم سلطنوا ابنه الملك المنصور على وقتل ماليك المعز شجرة الدر قتلة شنيعة جـسـزا لجرمتها ولم يستقر الملك المنصور على في الحكم طويلا حيث اجتمع الأمراء

(١) انظر بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٦٨ . دار الآثار الجديدة بيروت .

(٢) الملك الأشرف : مظفر الدين موسى بن الملك المسعود صلاح الدين يوسف الملقب بأستر بن عبد الملك الكامل بن العادل بن أيوب عقيد الجمان ج ١ ص ٣٥ .

(٣) انظر بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٦٨ بيروت .

واعيان

والكبراء واعيان المعسكر على أنه لا غنى للمسلمين عن ملك يقوم بحماية رايسته
الدين خاصة عند ما شيعتوا من قصد التتار الديار المصرية وأجمعوا على إقامة
الأمير سيف الدين قطز المغربي^(١) سلطاناً وهزم قطز التتار في (عين جالوت) ولكنه
قتل أثناء عودته وانتقل الحكم إلى الملك الظاهر بيبرس الذي يعتبر المؤسس
الحقيقي لدولة المماليك البحرية . ولقد استمرت الدولة المملوكية في حكم مصر
فترة تقرب من ثلاثة قرون بداية من سقوط الدولة الأيوبية إلى قدوم العثمانيين
إلى مصر ١٥١٧ م وفي الحقيقة أن قيام دولة المماليك قد استغرق ما يزيد على
عشرة أعوام كانت المحصلة النهائية لمجموعة من الأحداث اتخذ قسم منها شكل

(١) قطز المغربي هو سيف الدين قطز عبد الله التركي أخمص المماليك الملك
المعز أيك التركماني أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب المعين
عقد الجمان ج ١ ص ٢٥٥ وقال العدل أمين محمد بن ابراهيم
ابن أبي بكر بن عبد العزيز أبو الفوارس الجذري حكى لى والدى عن
بد . شأن الملك المظفر قطز رحمه الله كان في ريق العريم ، أو قبال
ابن الزعيم بد مشق القضاة والصحيح أنه بن الزعيم اتفق أن استأذنه
غضب عليه بشئ . أحدث منه فلطمه على وجهه ولعننه وأبيه وجده . ثم
انه جلس يبكي ويشحب وزاد في بكاءه عن حد القياس فقال له الحجاج
على الفراش وكان الحجاج على في بيت بن الزعيم هذا البكاء كله من
ضربة أو ضربتين فقال والله ما أبكي للضرب ولكن لسب أبي وجدى ؟ وهم
والله خير من أبيه وجده فقال له الفراسن ومن أبوك وجدك ؟ فما كان
الا كافرين فقال له لا والله بل أنا مسلم بن مسلم الى عشرة جدود وأنا
محمود بن محمود بن أخت خوارزم شاه السلجوكي ولا بد أن أملك مصر
وأكثر التتار انظر كنز الدراج ج ٨ ص ٤٠ : ٤٩ - القاهرة ١٩٨٠ .

صراع بين الرجال في الدولة الأيوبية من ناحية ورجال دولة المماليك من ناحية ثانية واتخذ قسم ثانى منها فى شكل صراع بين الجبهة الإسلامية مسئلة فتنى المماليك والمنغول والغزاة^(١) . وقد عرفت مصر فى حكم دولة المماليك عصرين أو دولتين الأولى دولة المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٣ هـ) (١٢٥٠ - ١٣٨٢ م) وترجع تسميتهم نسبة إلى غالبية سلاطينها من المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون وأسكنوهم فى جزيرة الروضة بالمنيل أو ما كان يسمى البحر أيضا . حيث قضى هؤلاء المماليك على دولة الأيوبيين وتولوا الحكم بعد هم فنسبوا إلى هذه البحرية التى كان الملك الصالح الأيوبي قد بناها^(٢) .

الثانية دولة المماليك البرجية (٧٨٤ / ٩٢٣ هـ) (١٣٨٢ / ١٥١٧ م) وتسميتهم نسبة لأن غالبية سلاطينهم من المماليك الذين كانوا يسكنون بسروج القلعة على جبل المقطم حيث يعتبر السلطان قلاوون البحرى أول من استكسثر هذا النوع من المماليك^(٣)

خامسا : العوامل التى ساعدت على نشوء دولة المماليك :

فى الواقع أن هناك عوامل داخلية وخارجية ساعدت على نشوء وصمود الدولة المملوكية فى مواجهة الأخطار فكانت تلك العوامل بمثابة التربة الصالحة

(١) انظر د / حامد غنيم أبو سعيد * الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية ج ٣ ص ٦٠ .

(٢) انظر د / سهام مصطفى أبو زيد (الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح الغربى الى نهاية العصر المملوكى) ص ٩٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) انظر د / عبد المنعم ماجد (طومان باى آخر سلاطين المماليك) ص ٢٧ مكتبة الانجلو المصرية ط ١٩٧٨ .

لوجود ذلك العنصر المملوكي . فقامت الدولة المملوكية وسندكر بشيئ من
الإيجاز بعض العوامل الداخلية والخارجية التي ساعدت على نشوء الدولة
المملوكية .

أولاً : العوامل الداخلية :

- ١ - انقسام الدولة الأيوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي ٥٨٩ هـ
١١٩٣ م ولحلال السرعات محل الوثام والوحدة^(١) . وكانت الفرصة المواتية
أمام الدولة الأيوبية كي تجدد شبابها هي الفترة التي أعقبت الانتصار على
الحملة الصليبية السابعة ، غير أن توارن شاء لم يكن بالرجل الذي تساعد
مواهبه على انتشار الدولة من محنتها ووضعها على الطريق الصحيح ، وكانت
تصرفات هذا السلطان في الأيام القليلة التي أعقبت الانتصار على الصليبيين
تؤكد أن النظام الأيوبي في مصر قد قرر أن يعيش محنة السقوط والاختفاء^(٢) .
- ٢ - كثافة وقدرة المماليك الحربية أكسبت المماليك احتراماً وتقديراً بالغاً
من سلاطين الدولة الأيوبية فلا يخفى علينا ما كان يكنه الملك الصالح
نجم الدين أيوب للمماليك من التقدير والاحترام حتى وصلوا إلى مناصب
كبيرة في الدولة الأيوبية : أمثال فارس الدين أقطاي ، بيبرس وقطز

وهناك عوامل داخلية كثيرة

- (١) للمزيد عن الانقسامات التي دارت مؤخراً في البيت الأيوبي انظر د /
محمد كمال عز الدين (التاريخ والمنهج التاريخي) لابن حجر
العسقلاني ص ٤٩ . وانظر د / أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي
ج ٥ ص ٢٠٢ - مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٠ .
- (٢) انظر د / حامد غنيم أبو سعيد (الجبهة الاسلامية في عصر الحروب
الصليبية ج ٢ ص ٢٧٤ - دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٤ .

ثانيا : العوامل الخارجية :

١ - إن المماليك كانوا بمثابة الدماء الجديدة التي كانت تطلبها حركة الكفاح ضد الصليبيين في هذه المرحلة من كفاحها فقد شاءت الأقدار أن يمسر العالم بحسن كثيرة وابتلاءات عظيمة . وقد جاء المد وان الصليبي على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك في الدفاع عن العالم الإسلامي فقد كان للخطوة التي وضعها بيبرس البندقداري ونفذها فرسان المماليك في شوارع المنصورة ^(١) الأثر البالغ في هزيمة جيش الصليبيين واستطاع هؤلاء بمساعدة المتطوعين المصريين القضاء تماما على الجيش الصليبي وأسمر لويس نفسه ^(٢) وكان انتصار المصريين على الصليبيين بين المنصورة وقراسكور بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك وإن كان بعض المؤرخين يعتبر أن الدولة الوليدة مرت بفترة تجربة استمرت عشرات سنوات بين معركة المنصورة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م وبين تولية سيف الدين قطز سلطانا على مصر وهو دور القوى الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي فللمرة الأولى في تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بلا خلافة بعد مقتل المعتصم بالله

(١) عن تفاصيل المعركة انظر / محمد مصطفى زيادة حملة لويس التاسع على

مصر وهزيمته في المنصورة ص ١٤٥ - ٢٠١ القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر د / قاسم عبيد (دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين

المماليك ص ٨ - دار المعارف ١٩٨٣ .

العباسي في بغداد ٦٥٦ هـ وانجلى هذا الحدث الذي زلزل أركان العالم الإسلامي^(١) وكان على دولة الماليك الناشئة أن تتصدى للخطر التتاري وهو ما قامت به دولة الماليك على أيدي سلطانها سيف الدين قطز الذي أدان التتار مرارة الهزيمة بعين جالوت ومن بعده واصل الملك الظاهر بيبرس وسلاطين الدولة المملوكية الجهاد ضد الصليبيين والتتار ما أكسب الماليك صفة شرعية في الحكم هذا إلى جانب إحياء الخلافة الإسلامية في عهد الملك الظاهر بيبرس البندقداري .

(١) انظر د / قاسم عبده (دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصير سلاطين الماليك ص ٨ - دار المعارف ط ١٩٨٣ .

الفصل الثاني
الحالة السياسية والحياة الاجتماعية
في العصر المملوكي

الفصل الثاني

الحالة السياسية والحياة الإجتماعية في العصر السلوكي البحري
 أولاً : الحالة السياسية في العصر السلوكي :
 للحدوث عن الحالة السياسية في العصر السلوكي لابد أن نشير إلى أن
 الحالة السياسية في ذلك العصر لم تكن على وتيرة واحدة .

حالة التفكك والتمزق :

انصفت الحقبة السياسية الأولى بالتفكك والصراع على السلطة . ففي نهاية
 عصر الدولة الأيوبية وبالتحديد بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م
 سادت الفتن وانقسم المسلمون في كل بقاع الأرض إلى دويلات وحوزات ملوك.
 ينظر بعضهم إلى بعض نظرة العدو والمفترس لا نظرة المؤمنين العوالي ونظـر
 الملوك إلى رعاياهم نظرة المتسلطين المسيطرين يسومونهم الخسف والهوان^(١).
 وبينما المسلمون على ذلك الحال الذي يرضى له وذلك الوضع الذي هم أقسرب
 فيه عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثوبان مولى رسول الله قال :
 قال صلى الله عليه وسلم * يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تتداعى
 الأكلة على قصعتها . فقال قائل أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال أنتم يومئذ كثير ،
 ولكن تكونون غشاء كثفاً السيل ولنزعن الله المهابة من صدوركم ويجعل
 في قلوبكم الوهن . قال قائل يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا
 وكراهية الموت^(٢) . ويصف ابن الأثير الأخطار التي حلت بالعالم الإسلامي في
 ذلك الوقت فيقول لقد ابتلى الإسلام والمسلمون في هذه الفترة بمصائب لم يبتل
 بها أحد من الأمم . منها هولا التتار فمنهم من أقبلوا من الشرق ففعلوا

(١) انظر / أبو زهرة * الامام ابن تيمية حياته وآراءه الفقهية ص ١٠٦ دار

الفكر العربي
 (٢) مستند الامام / أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٢٧٨ .

الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها . ومنها خروج الفرنجة لعينهم
 اللصوصية هم ديار مصر أو غيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى
 ونصره إياها ومنها أن السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة ^(١) . ويتضح لنا من ذلك
 الوصف أن المسلمين لم تواجههم أخطار خارجية من العدو الصليبي الماكر .
 والتتارى الغاشم فقط ولنا واجهتهم أخطار داخلية وهي الفتنة والصراع على
 السلطة وتد لنا تلك الواقعة على ما كان عليه حال حكام المسلمين من تناقص
 على السلطة فقد علم الملك المظفر قطز بسير نجدة التتار إلى الناصر .
 فخشي الملك المظفر قطز من استفعال الأمر فبعث رسله إلى الملك الناصر
 صاحب الشام يتودد فيها إليه ويقسم بالأيمن أنه لا ينازع في الملك
 ولا يقاومه وأضاف أن المظفر ما هو إلا نائب للملك الناصر في مصر وأنه
 قدم الناصر إلى قطز أقعد قطز على كرسى السلطنة وكتب له في رسالته :

* إن اخترتني حدثك وابن أخيتي قد متون معي من المعسكر نجدة لك على
 القادم عليك فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك المعسكر في صحبة من تختار ^(٢) .
 فلولا من الله على المسلمين بقائد عظيم هو الملك المظفر قطز لكانت تلك طامة
 كبرى حيث أن الملك الناصر استجد بالتتار وأبدى التعاون معهم ضد
 سلطان مصر من أجل السلطنة ولكن القائد المسلم سيف الدين قطز استطاع
 أن يوحد صفوف المسلمين في مواجهة الخطر الزاحف .

(١) انظر ابن الأثير "الكامل في التاريخ" ج ٩ ص ٣٣٠ - دار الفكر
 بيروت .

(٢) انظر د / فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك
 والمغول في الدولة المملوكية الأولى ص ٣٧ - دار المعارف .

وفي أوائل ٦٥٩ هـ تضرعت الجبهة الإسلامية إلى تترق في ثلاث اتجاهات
إتجاه في القاهرة، وآخر في دمشق، وثالث في حلب . وهذا انقسام خطير لم
قد ر الله أن يستمر لقاعد الجبهة الإسلامية بين عدوئها المتربصين لها " المغول
والصليبيين " وزاد من خطورة الأمر سقوط الخلافة العباسية .

سقوط الخلافة العباسية :

لأول مرة في تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بدون خلافة بعد مقتل
ال خليفة المستعصم بالله العباسي في بغداد سنة ٦٥٦ هـ وسقوط بغداد في
أيدي التتار مما أشاع الرعب في قلوب المسلمين في كل أنحاء الممالك الإسلامية .

ثانيا : الحالة السياسية بعد عودة الخلافة العباسية :

تغيرت الحالة السياسية في العصر المملوكي بعد إحياء الخلافة العباسية
في السابع عشر من ربيع الآخر ٦٦٦ هـ على أيدي بيبرس على أنه لم يكن أول من
فكر في إحياء الخلافة بل سبقه إلى التفكير في ذلك الملك الناصر يوسف صاحب
دمشق الذي ما كان يعلم من الأمير عيسى بن مهنا أن أميراً عباسياً قد قدم إلى
دمشق وحتى أرسل يستدعيه إليه غير أنه فوجئ بقدوم التتار فعاد الأمير
ثانية إلى عيسى بن مهنا وعند ما قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على

(١) هذا الأمير هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القبي بن علي
ابن أبي بكر بن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله وكان قد
اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار (١) قام عند
حسين بن فلاح أمير بني خفاجة ثم ذهب إلى دمشق وقام عند الأمير
عيسى بن مهنا - (السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ : ٣١٨ .

أثر انتصاره على التتار في موقعة (عين جالوث). أخبره الأمير عيسى بن مهنا
 بمقدم ذلك الأمير العباسي . فقال له إذا رجعنا إلى مصر أرسله إلينا للتعينة
 إن شاء الله ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمى إلى تولية هذا الأمير خليفته
 للمسلمين غير أنه لم يعمر طويلا حتى ينفذ هذه الفكرة (١).

ولقد استفاد الإسلام بلا شك من إقامة خليفة يكون عنوانا للوحدة الإسلامية
 ورمزاً لجماعتها الموحدة . وإن كانت الخلافة قد عادت شكلاً لا قوة لها . فقد
 حاول الخليفة المستنصر بالله أن يعيد لها معناها وأن يشكلها فإن بقاء الشكل
 قد يكون ^{أزواجاً} إيزاناً يعود بها الحقيقية أو بوجود عودتها وقتاً من الأوقات فكانت
 الخلافة هبة في قلوب الأعداء وشهدت تلك الفترة استقراراً نسبياً .

ثالثاً : الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي :

عاشت مصر عيشة ناعمة أيام الفاطميين وكانت الحياة الاجتماعية أقرب إلى
 الترف والبدخ . منها إلى حياة الجهاد والكفاح منها أقرب إلى الدعوى
 والمدنية منها إلى الحرب وحياة الجندية فلو جاء الأيوبيون وقضوا عهدهم
 كله في الحروب الصليبية من أوله إلى آخره ، إن أن دولة الأيوبيين ظهرت
 على مسرح التاريخ وليدة الشعور بالخطر الصليبي . وكانت حياتهم عسكرية
 صرفة . وتتغير الحياة في عهد المماليك فلا هي عسكرية صرفة ولا مدنيّة
 خالصة . فبينما نرى أن هؤلاء المماليك يصدون غارات الصليبيين والمغول ،

(١) انظر / د محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس في مصر "

ويقومون بفتوحات عديدة نراهم تنعموا بظاهر الأبهة . واختلف العلماء
 في تصنيف الفئات التي يتكون منها المجتمع زمن الماليك فمنهم من قسم الفئات
 إلى اجتماعية أساسية في العصر المملوكي إلى خمس فئات . أولي هذه الفئات
 الماليك الذين كانوا يقفون على رأس السلم الاجتماعي وسعتهم المصادر وأرباب
 السيوف ، ثم فئة كبار موظفي الدولة من غير العسكريين وسعتهم المصادر وأرباب
 الأقلام ويشكل العلماء الفئة الثالثة الاجتماعية في العصر المملوكي الأول وتأتي
 التجارة في المرتبة الرابعة ، ثم سائر الناس وهم العامة .

أما ابن خلدون فيقسم المجتمع إلى قسمين؛ سلطان ورعية ^(١) ويستعرض للتحدث

عن أهم الفئات الاجتماعية :-

١ - السلطان :

حتى تمت السلطة لأحد الأمراء وصار سلطانا على البلاد أصبح بيده الأمر
 والنهي والحل ^{السلطان} وصار صدر السلطان وولي الأمر الشرعي وهو الذي يعين
 ويعزل ويرقي ويفرق الإقطاع ويفرر الحرب ويفرض الضرائب وينفق المال على
 مرافق البلاد ويشترى الماليك للدولة وينفق عليهم ويربهم ويعد لهم للحراسة
 والقتال وإلى غير ذلك من المهام فهو محور الدولة وعليه مدارها ^(٢) وتشبه سلطات
 السلطان في الدولة المملوكية سلطات الخليفة في العصور السابقة . وصفوه
 القول كله أن السلطان هو كل شيء في تنظيم دولة الماليك ^(٣) .

(١) انظر / مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٨ - دار الفكر .

(٢) انظر د / عبد المنعم ماجد " دولة سلاطين الماليك ورسومهم ودراسته
 شاملة للنظم السياسية . مكتبة الانجلو المصرية .

(٣) انظر د / محمود رزق سليم : عصر سلاطين الماليك ج ٤ ص ٢٨٩

حفل توليته :

بعد استقرار الرأي على أن يتولى أمير معين أمر السلطنة يقام له حفل تولية ومبايعة يجتمع فيه الخليفة وقضاة الشرع الأربعة وسائر الأمراء ويكتب تقليد السلطان للسلطنة ويتلى في الحفل على لسان الخليفة العباسي يوليه فيه شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة نحو السلطان فيبايعه ويمسح باليد ثم يليه قضاة الشرع فالأمراء ويلبسونه بعد ذلك شعار السلطنة وهو عمامة سوداء لهيكل عريضة مذهبية وجبة سوداء وسيف تسجين ذو حائل ويجلسونه في الرست^(١) وكانت القلعة محل إقامة السلطان وبها دواوينه ، وقصره وما يتبعه من أبنية وإدارات ومن أهم الدواوين : ديوان الأحياس وتشبه وزارة الأوقاف وديوان النسكر ويشبه وزارة المالية . وديوان الخاص وديوان الإناش ، الغلال وديوان المرتجعات (التركات)^(٢)

حفل الإستقبال :

عرف سلاطين المماليك الأعراف الدبلوماسية السائدة في عصرنا من إقامة مراسم الإستقبال في المناسبات عند حفلاتهم بضيف كبير ، وكانت تراعى فيها تقاليد وأوضاع مقررة ويرسل السلطان عادةً إلى القادم من يلقاه في طريقه ويهدي له منزلاً مناسباً لإقامته ويعين له من يقوم بحراسته وخدمته .

(١) الرست : وهو العرش في أيامنا هذه ورست السلطنة هو كرسي العرش

والرست أيضاً بمعنى الديوان (بيبرس المذهور والتحف المملوكية)

ص ٢٧ (الدار المصرية اللبنانية ط (القاهرة)

(٢) انظر شحاته عيسى ابراهيم * القاهرة تاريخها ونشأتها * ص ١٥٧ -

دار الهلال .

7.

وأراد سلاطين الماليك أن يتشبهوا بالسلف في تنقذ أحوال الرعية
والنظر في المظالم فجلسوا في مجلس القضاء للفصل في الشكايات والخصومات
واصطحبوا معهم قضاة الشرع . وكان جلوس سلاطين الماليك في مجلس القضاء
من العادات الحميدة ولم تطرد هذه العادة فيها فمنهم من هجرها جملة
ومنهم من لم يواظب على هذه المادة باستمرار . ومن الذين جلسوا للقضاء
نجد الظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون ، والناصر بن قلاوون وتقدم
الشكاوى والمظالم على اختلاف أنواعها إلى السلطان حين ذلك ^(١) ~~لما~~ ^{في}
فيها قضاة الشرع فيحكم بما يراه ولا يخرج عن رأيهم ^(٢)

٢ - الوزير :

الوزارة كلمة فارسية الأصل فهي ليست من مستحدثات الإسلام فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم على لسان موسى إذ يقول * وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِي أَرْزَى وَأَشْرَفُ فِي أَمْرِي * .

(١) انظر المرجع السابق ج ٤ ص ٢٩١ : ٢٩٢

(٢) انظر د / سلمان محمد الطحاوي "نظم الحكم والادارة" ص ٤٦٧ .

(۳) سورہ طہ آیہ ۲۹ : ۳۱

واتخذ بيبرس ^(١) له . كان يستشير في أمور الدولة كما كان وسيطاً بينه وبين الرعية وكان عليه تنفيذ أوامر السلطان . وإعطاء النصح والإرشاد له إذا ما استأنس برأيه في أمر من أمور الدولة غير أنه لم يكن يتشع بكامل سلطنته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه ^(٢) . وظلت الوزارة قائمة في ذلك العصر حتى ولي الناصر محمد بن قلاوون سلطنته ^(٣) مصر فلم يتخذ له وزيراً ^{عائداً} على نواب له في إدارة شئون البلاد وكانت رتبته تلي رتبة الوزراء يعاونه في عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفيين ولهؤلاء رئيس يسمى (مشوف الصحن) وكانت مهمته اعداد المراسم الخاصة بتنظيم شئون الدولة ^(٤) .

١ - الوزير : هو المتحدث الملك في أمر مملكته واختلف اشتقاقه فقيل مشتق والوزير بفتح الواو والوزير وهو الملجأ . ومنها قوله تعالى " كلا لا وزير " سمي بذلك لأن الرعية يلجأون اليه في حوائجهم وقيل مشتق من الأوزار وهنهي الأمتعة ، ومنها قوله تعالى " ولكن حملنا أوزارنا من زينة القوم " سمي بذلك لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته وقيل مشتق من الوزير بكسر الواو واسكان الزين وهو الثقل ومنه قوله تعالى " حتى تضع الحرب أوزارها " وسعى بذلك بقوى لوزيره لقوة البدن بالظهر (الغلقشندي " صبح الأعشى " ج ٥ ص

٤٤٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .

٢ - انظر د . محمد جمال الدين سنور " دولة الظاهر بيبرس " ص ١٢٢ .

٣ - انظر المقريزي " للخلف " ج ٢ ص ٣٣٤ دار الفكر المصرية ١٩٦٠ .

ويدل ذلك على أن سلاطين الماليك لم يتخذوا لهم وزراء^١ يعاونوهم في إدارة شؤون الدولة كما كانت الحال في عهد الدولتين الفاطمية والأيوبيه فأضعفوا أولاً من نفوذهم ثم استبدلوا بعض كبار الموظفين فأصبح كل من ناظر الدولة ^{منصب} مناظر الخاص حتى يقوم بسهام الوزارة ولعلمهم عهدوا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقوية سلطنتهم وخلصهم من عروشهم كما كانت الحال في أواخر الدولتين العباسية والفاطمية .

٣ - الأمراء وكبار موظفي الدولة :

الأمراء هم قادة الجند وهم الفئة التالية للسلطان في الحكم والمنفذة لأمر الدولة ويغلب أن يكون الأمير مملوكي الأصل مربي في طباق القلعة تربية عسكرية فصار جندياً ثم رفعت به مهارته وجدده إلى صفوف الإمارة ويتولى الأمراء أهم مناصب الدولة ولا سيما العسكرية منها وهم في الغالب أربع طبقات :-

١ - أمراء الناقية :

المقدمون وتلك أرفع العراتب ويختار من هذا الصنف كبار الموظفين مثل نائب السلطنة الأتابكي^(١) : ~~و~~ أول من أسير الترك ~~(الماليك)~~ هذه السنة الملك المعز حيث رتب مملوكه الأمير سيف الدين قطز المعزى في نيابة سلطانه وكانت سنة حسنة^(٢) وكانت نيابة السلطنة كما يستدل من منطوقها

(١) الأتابك : هو القائد العام لجيوش الدولة وأتابك لفظ تركي مركب من كلمة "أطا" بمعنى أب وكلمة بك بمعنى السيد أو الأمير فيكون الأتابك هو السيد الأب أو الأمير الأب أي أب الأمراء .

(٢) انظر بيبس المنصوري " التحفة المملوكية " ص ٣٣ - تحقيق د / عبد الحميد

صالح حمدان - القاهرة ١٩٨٢ .

أكبر الوظائف في الدولة المملوكية ويقوم بتوليها مقام السلطنة
في غيبته^(١).

٢ - أمراء الأرمين :

وهم أقل مرتبة .

٣ - أمراء العشرة :

٤ - أمراء الخمسة :

وأهم وظائفهم نائب الإقليم أو قلعة دمشق والإسكندرية وحلب أو أمير
مجلس ويشرف على الأطباء ومن آل إليهم وأمير سلاح وهو رئيس رجال
السلاح من ممالك السلطان ويوكل إليه الإشراف على السلاح وإعداد
وأمير أخضر وينظر في الاستبلاط السلطانية وما تحتاج إليه من طعام
وشراب وخدم وغير ذلك (والدوا دار) يبلغ رسائل السلطان وتقدم إليه
المظالم والبريد مع كاتب السر والجاشنكير^(٢) يتولى الإشراف على

(١) الخطيب الجوهري "نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان" هامش

ص ٤٧ .

(٢) الجاشنكير : هو الذي يتخذى لزوم المأكول والمشروب قبل السلطان

أو الأمير خوفا من أن يفس فيه سسم أو نحوه وهو مركب من لفظة

فارسيته : أحدهما جاشنا بجيم في أوله قريبة من الشين معناه

الذوق ولذلك يقولون في الذي يذوق الطعام أو الشراب الشيشي

والثاني كبير وهو بمعنى التعاطر لذلك فيكون المعنى الذي يروى

انظر القلقشندي "صبح الأعشى" ج ٥ ص ٤٦ .

الخزائن السلطانية والأطعمة والموائد ووالي القاهرة وهو من الوظائف الهامة التي ظهرت في هذا العصر وهي تقابل ما يعرف بالعصر الإسلامي الأول بالشرطة ومهمة صاحبها حفظ النظام والقض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك مسن الأعمال الإدارية التي تكفل سلامة الجمهور^(١).

الجيش :

اهتم أرباب السيوف اهتماماً بالغاً بالجيش ويعد بيبرس أول من نظم جيوش المماليك تنظيمًا تاماً ولا عجب . فقد كان قائداً محنكاً ظهرت كفاءته في موقعة المنصورة التي دارت بينه وبين الصليبيين وكان جيش المماليك يتألف من ثلاث طوائف :-

جنود نظامية تنفق عليها الدولة ومماليك السلطان وهم عصب الجيش وقوته العاملة^(٢) وكانوا يجلبون من الخارج رقيقاً ويمنون تربية عسكرية في أبراج القلعة . واهتم السلاطين بهم حتى أصبحوا ذا ثروة كبيرة ونفوذ عظيم . أما الطائفة الثالثة فهم مماليك الأمراء وكانوا يحرسونهم وقد حافظ المماليك على صيغتهم الحربية حتى بعد ضعف نفوذهم وقد كان جيش المماليك من أقوى الجيوش عدداً وقوة . بحيث تغلب على أكبر جيوش الأرض كالصليبيين والمغول .

(١) انظر محمد جمال الدين سرور * دولة الظاهر بيبرس ص ١٣٦ دار الفكر

العمري ١٩٦٠ .

(٢) انظر / محمود رزق سليم * عصر سلاطين المماليك * ج ٤ ص ٣٠٣ طبعة

النهضة ١٩٨٢ .

٤ - العلماء :

عرفت بطبقة المعلمين أو أهل العسامة وكانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب وامتازت هذه الفئة بميزات معينة فكان بعض السلاطين يقومون للعلماء ويجلسونهم إلى جوارهم إلى جانب إغراق المنهج والمرتبات الشهريّة على أرباب الوظائف المعتمدين . واعتز المعتمدون بمكانتهم في عصر سلاطين المماليك فلجأوا أحياناً إلى معارضة السلاطين في الحسنى وكان لرأيهم قوة حقيقية يخضع لها السلطان .

٥ - أهل الذمّة :

حرص السلاطين والأمراء على التزامهم العدالة تجاه غير المسلمين عملاً بتعاليم الدين الإسلامي وفي الحقيقة أن أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود أو المسيحيين قد مارسوا كل المهنة والحرف التي مارسها المسلمون ومن ناحية أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أنّ اليهود والنصارى قد تملكوا العقارات في شتى أنحاء البلاد إما عن طريق البيع والشراء وإما عن طريق الوراثة . كما تدل الوثائق على أنّ اليهود والنصارى كانوا يتعاملون مع المسلمين في عمليات البيع والشراء في حرية تامة في ظل القسرات الحاكمة آنذاك^(١) . ورغم ذلك اشتهر أهل الذمة في ذلك العصر بميولهم وتواطؤهم مع التتار ضد المسلمين ما جعل الملك الظاهر بيبرس والذي اشتهر بالعدل والأخلاق الحميدة أن يعاملهم

١ - انظر د / علي إبراهيم حسن " تاريخ المماليك البحرية " ص ٩٤٩ - مكتبة

النهضة ١٩٨٠ .

كانوا

معاملة تتخلو على العطف والرعاية بسبب ما كان يقومون به من المناوشات والفتن فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء اشتغال ببيرس بفتح أرسوف سنسبة ٦٦٣ هـ وأُشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران فلما عاد ببيرس إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم ثم أمر بإحراقهم فشفيع فيهم الأمير حارس الدين أقطاي أتاك المساكين على أن يلتزموا بدفع قيمسة ما أحرق وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار في كل عام فأخلق صراحهم وتولى بطريقهم دفع الأموال المطلوبة والتعهد بالآل يعودوا إلى فعل شئىء من المنكرات والآل يخرجوا عما هو مقدّر^(١) لأهل الذمة وكان الناصر أكثر عطفا على النصارى من سيقه من سلاطين الممالك حتى أنه أمر بإعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته ومنع عنهم الأذى فتمتعوا في عهده بالهدوء والطمأنينة وراحة البال اللهم إلا إذا استثنينا بعض حوادث عارضة كانت تؤدى إلى تغيير السلطان والعام ما جعل الملك الناصر محمد بن قلاوون يعترض على النصارى أن تميز عمامتهم باللون الأزرق واليهود بالعمائم الصغيرة تميزت كل ملة بعلامة معينة وقد كان مرسوم الملك الناصر بتخصيص عمامة أهل الذمة له ما يسره في ذلك الوقت فقد حدث أن بذل أهل الذمة مالا لتكون عمامتهم لون عمام المسلمين . فعرض ذلك الأمر على مجلس العلماء فسكت أهل المجلس وقام الشيخ ابن تيمية وتكلم كلاما عظيما^(٢) ورفض أن تكون عمامة أهل الذمة بلون عمام المسلمين وذلك يجهلنا تتسائل لماذا شدد ابن تيمية في أن يكون

(١) انظر / د. جمال الدين سرور * دولة الظاهر بيبرس * ص ١٥٣ - دار

الفكر العربي ١٩٦٠ .

(٢) انظر السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧٩ مطبعة الموسوعات .

لأهل الذمة عمام مسيقة على غير لون عمام المسلمين مع أنه المسلم
الصادق الذي يعرف أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم أوجب الفرق بهم كما أنَّ
ابن تيمية لما استنفذ الأسرى من التار لم يفرق بين أسرى الذميين ؟ ولعل
ما حمل ابن تيمية على التشدد للتمييز باللباس هو ما كان يخشاه من عيون النصارى
الباقيين من الحملة الصليبية ، وأن يكون بعض الذميين عيوناً لهم .^(١) فشدد
في أن يتميزوا تمييزاً مبيناً ، لكي لا يبت من يميلوا إلى الصليبيين ~~سوء~~ في
الجماعة الإسلامية وخلاصة القول أنَّ الموقف الرسمي لسلطين المماليك تجاه
رعاياهم لغير المسلمين من خلال الوثائق الكثيرة التي خلفها لنا ذلك العصر^(٢)
فقد صدرت المراسيم من السلطين وكبار الأمراء طوال عصر المماليك التي تحفظ
لأهل الذمة حقوقهم ومساكنهم .

٧ - المصريون :

كان المماليك يعيشون عيشة الترف بينما المصريون على العكس من ذلك
لا عمل لهم إلا زراعة الأرض و دفع الضرائب وكانوا يقومون فوق ذلك بصنع الملابس
الملوكية الفاخرة وبناء عمارتهم ، غير أنهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من
بعض المناصب الحكومية فكان يستند إليهم الوظائف الدينية والقضائية^(٣) وقد تأرجح
وضع المصريين بين اليسر والرخاء أحياناً وبين الفقر أحياناً أخرى .

(١) انظر / د . محمد محمد أبو زهرة لابن تيمية " حياته وأمرائه الفقهية "

ص ٦٣ دار الفكر العربي .

(٢) للاطلاع على تلك الوثائق راجع قاسم عبيد " أهل الذمة في مصر " ص ٤٤ .

(٣) انظر د . محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس " ص ١٠٣ -

دار الفكر العربي ١٩٦٠ .

٨ - الوانيدية :

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قد موأ إلى مصر في أوائل عهد الملك الظاهر بيبرس واتخذوا الإسلام ديناً لهم وأقاموا في دور بنيت لهم فسمى أراضي اللوق^(١) . وكانوا موضع عناية السلطان وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن أكثر عدد الوافدين منهم وتزايدت بذلك العناصر في اللوق والجهات التي حولها . وهكذا كان لكل فئة أو طبقة اجتماعية دور على مسرح الأحداث في العصر المملوكي .

(١) اللوق : كانت تطلق في عهدهم على الجهات التي تعرف اليوم ببياب اللوق (المرجع السابق) ص ١٥٢ .

الفصل الثالث

الحركة العلمية في العصر المملوكي

* الحركة العلمية في العصر المملوكي *

(١) انظر د. / محمّد دياب * محاضرات في تاريخ الدعوة الاسلامية *

(٢) انظروا / محمد محمد أبو زهره* الحديث والمحدثون " ص ٤٣٦ ،

دار الفكر العربي .

زکو

(١) وذلك بعد نقل الخلافة إلى مصر في عصر الظاهر بيبرس ٦٥٨ هـ /
 ١٢٦٥ م ولقد كان للمالك نظام متكامل للتعليم فقد كانت الدراسة تيسر
 بمراحل متعددة أولها التعليم في المكاتب وثانيها التعليم في المدارس

وقد تتطلب كل نوع من التعليم أنواعا مختلفة من المؤسسات التعليمية .
طالع بن يحيى المحمد بن عبد الحافظ الذي عرف
أولا : التعليم في المكاتب : في الإسلام لمدرسة أبي عبد الله

تدور شأج التعليم في المكاتب حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن
 والحديث وآداب الدين فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة ومع

الشعر . تعليم الأطفال

ويعد تعليم الأطفال بالكتابة في الألواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة
 بالمداد وكانت الدراسة بالمكاتب العامة قاصرة على الأيتام فكان إذا بلغ
 الطفل الحلم زالت عنه صفة اليتيم وصرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر
 وقد عرفت مصر في تلك الفترة نوعين من المكاتب مكاتب خاصة بأجر ومكاتب عامة
 تقتصر على الأيتام والفقراء وقد عرف المالكي النظم التربوية في التعليم واهتموا
 بها اهتماما عظيما فأوصى المؤدب (٢) بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو

(١) انظر شجاعة ابراهيم عيسى " القاهرة تاريخها ونشأتها " ص ١٧١ .
 دار الهلال .

(٢) المؤدب : هو الذي يقوم بتعليم الأطفال في المكاتب ويطلق عليه
 أحيانا اسم المعلم أو الفقيه (عبد الغنى محمود ، الحركة الفكرية
 في مصر ص ١٢٨ ، دار المعارف .

الأدب

عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء أحدهم للأدب أو قام بعمل خارج عن قانون الشرع وفي هذه الحالة يجب على المؤدب ألا يضرب صبيا بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة تؤلم الجسد بل تكون وسطا واشترط في المؤدب عبادة شروط منها * أن يكون صحيح العقيدة ^(١) حسن السيرة ، محمود السمعة ، وقد موا للتعليم الحوافز المادية والمعنوية المشجعة للطلاب على طلب العلم فإذا أتم الولد حفظ القرآن في المكتب احتفل به احتفالا عظيما يسمى بالإصراف * فتتزين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحرير وبزین الصبي ويسير في موكب حافل بالبهجة والسرور ، وهكذا يظهر لنا مدى اعتزاز الماليك بالقرآن الكريم والشرعية الإسلامية وبعد حصول الطفل على الإصراف ، والإلمام ببعض مبادئ العلوم يصبح مهيبا لتلقي مرحلة أعلى من المكاتب .

ثانيا : التعلم في المدارس : مطلوب نبذة عن عصر السلوك ذلك

كانت المدارس في العصر السلوكي بمثابة كليات عالية بلغت درجة فائقة في التنظيم العلمي والإداري وروعي في تصميمها الأغراض التعليمية وعدد المذاهب وساكن الطلبة والمعيدين وكذلك ألحقت بكل مدرسة مكتبة عظيمة . أما العلوم الأساسية التي كانت تدرس في هذه المدارس ارتبطت

(١) انظر د . / علي السيد علي " القدس في العصر السلوكي " ص ١٥٨
دار الفكر للطباعة والنشر .

بأصول الدين كاللغة والحديث والتفسير ، أو العلوم اللغوية كالنحو والصرف والبيان ، فضلا عن الدراسات العقلية كالفلسفة والمنطق ، أو العلوم العملية كالفلك والكيمياء والطب واهتم كذلك سلاطين المماليك بالدرسين إذ كانت وظيفة التدريس جلية القدر يخلع السلطان على صاحبها في كثير من الأحيان بهدايا ويكتب له توقيع عن ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرسون إن كانت تفسيراً أو حديثاً أو غير ذلك ، ولم تقتصر مهمة المدرس على مجرد الإلقاء والتلقين والشرح بل كان عليه أن يسهل على الطلبة الفهم ويحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف بل يدربهم ويأخذهم بالأهـون فالأهـون ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق وإن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الواجبات بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ويخوض بهم عابه الزاخر^(١) ، وإذا كان المدرس هو الأستاذ الذي يقوم بتدريس مادة معينة يخصص فيها فإن المعيد كان يساعده بإعادة الإلقاء الدرس على الطلبة بشرح الصغيب .

وكان المعيد يتبع استشارة أستاذ ويتبعه في المذهب ومادة التخصص ويواظب على حضور دروسه أياً بالنسبة لاختيار مواد الدراسة ارتبط بشروط إنشاء المدرسة ووقفها وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية حتى قيل إن ابن حجر وهو من كبار فقهاء القرن التاسع الهجري

(١) انظر د / علي السيد علي "القدس في العصر السلوكي" ص ١٦٩ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

كان يجتمع حوله بضعة آلاف من المستمعين والمستمِليين ، وألحقت بكل مدرسة مكتبة يرجع إليها المدرسون والطلبة وتعددت الأغراض في استخدام المدارس في غير التعليم واستخدمت مقرأ للقضاة ونواب دار العدل للفصل في القضايا وكان ذلك مع بداية الدولة المملوكية وشيد المالك مدارس ~~مكتبة~~ عديدة خدمت العلم والعلماء وأنفقوا عليها الأموال بسخاء حتى كانت موضع افتخار واعتزاز المالك إذ جمعت بين الفن المعماري الرائع والتنظيم الحديث ونجوم لامعة في العلم تخرج على أيديهم علماء لهم شأن عظيم ومن أشهر هذه المدارس :-

١ - المدرسة الظاهرية القديمة :-

وعرفت بالقديمة تميزا لها عن المدرسة الظاهرية الجديدة ~~بالأول~~ ^{والثاني} منسوبة إلى الملك الظاهر بيبرس الهندقداري ، بناها عام ٦٦١ هـ ، وترتب لتدريس الشافعية بها تقى الدين بن رزين ، ولتدريس الحنفية محي الدين عبد الرحمن بن الكمال بن العيديني ، ولتدريس الحديث الحافظ الحافظ شرف الدين الدماطي ، ولتدريس القراءات كمال الدين القرني ، وألحقت بها خزانة كتب عظيمة ^(١) .

(١) د / عبد اللطيف حمزة (الحركة الفكرية في مصر) ص ١٦٤ ، دار

الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

٢ - المدرسة المنصورة :-

نسبة إلى الملك المنصور قلاوون بناها عام ٦٧٩ هـ ورتب فيها
دروسا للفقهاء على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروسا كذلك
في الطب .

٣ - المدرسة الناصرية :-

نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون وكانت مدرسة عظيمة عين بها
الدرسون للمذاهب الأربعة وألحق بها مكتبة خافلة وتحصن لبناتها ونها
المارستان والحق أن الملك الناصر بن قلاوون كان من أعظم سلاطين
المماليك شغفا بالعمارة حتى أن المؤرخين عجبوا لهذا التهاوت الذي بدأ
من الملك الناصر على البناء والعمارة حتى أن ابن أبياس قال عنه * ولا يعلم
لأحد من الملوك آثار مثله * (١) .

٤ - مدرسة السلطان حسن :-

نسبة إلى السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون وقيل عنها إنها
لا يعرف منذ ميلاد الإسلام مدرسة من مدارس المسلمين تحاكي هذه المدرسة
في كبر قاليها وحسن هندامها وضخامة شكلها وقد تجاوزت العمارة فيها

(١) ابن أبياس * بدائع الزهور في وقائع الدهور * ١/ ١٧٣ ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ م .

ثلاث سنوات لا تتوقف يوماً واحداً وقال الدكتور كمال الدين سامح عنها إنها من أجمل الآثار الإسلامية في مدينة القاهرة إذ أن مبانيها تجمع بين قوة البناء وعظمته ودقة الزخارف وجمالها ^(١) وقد قدر السلطان حسن المدارس الفقهية الأربعة مدرسين ، ومراقبين وخصص لها مرتبات ، وألحقت بهما ساكن للطلبة ^(٢) .

٥ - المدرسة الظاهرية الجديدة :-

فرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ فأقبل الشعراء على السلطان الملك الظاهر يهنئونه بها وعين السلطان فيها مدرسين للفقهاء على الداهية الأربعة والحديث والقراءات فلم يكن منهم من أحد إلا متقدماً في فنه أو مجال تخصصه ، وعين بالمدرسة سراج الدين البلقيني مدرسا للتفسير وكأهنا به نفرا ^(٣) .

ثالثاً : المساجد :-

تعتبر المساجد أقدم مظاهر التعليم التي وجدت في مصر خاصة قبل ظهور المدرسة كمؤسسة تعليمية ولم يقلل ظهور المدارس وانتشارها من

(١) د / كمال الدين سامح " في العمارة الإسلامية " ص ٧١ ، القاهرة .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٣) د / عبد اللطيف حمزة ، " الحركة الفكرية في مصر " ص ١٦٥ ،

دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

شأن المساجد . إن استمر المسجد هو أفضل أماكن التدريس لكثرة المنتفعين
 بالعلم في المساجد وعدم اختصاصها بفئة معينة دون أخرى . فقد تأثر
 التدريس بالمساجد بعض الشيء ، وواجه فترة من الركود النسبي في العصر
 الأيوبي نظراً لاهتمام الأيوبيين بإنشاء العديد من المدارس التي انتقلت
 إليها قيادة الحياة التعليمية في تلك الفترة والتالي تدفق عليها المدرسون
 والطلبة نظراً لما يصرف فيها من المرتبات النقدية والعينية بالإضافة إلى
 السكن المجاني في كثير من المدارس حتى جاء الماليك فأعاد للمسجد مكانته
 العلمية ولم يكن ذلك يعني تقصير الماليك في توفير متطلبات الحركة التعليمية
 للمدارس وإنما إيمانهم بأهمية التعليم في المسجد ودوره العظيم حتى
 صارت في ذلك العصر المدارس نوعاً من المساجد بل أن المساجد التي أقيمت
 أساساً للعبادة أعطى فيها بعض الدروس ورتب لها الطلبة والمدرسون كذلك
 التي وجدت بالجامع الخصري والجامع الباسطي ، فأصبحت المدرسية
 والخانقاة^(١) والمسجد الجامع حتى واحد يقوم بهذه الأغراض مجتمعة ويتضح
 ذلك في معظم المنشآت في عصر الماليك ، كما كان في المدرسة الباروقيسية
 إذ أنها كانت سجداً وجامعاً وخانقاة ومدرسة^(٢) .

(١) الخانقاة : الخانقاة أو الخانكاه * كلمة فارسية معناها دار الصوفية

يتعمدون فيها * انظر كمال الدين سامح * العمارة في الاسلام ص ٦٩
 دار المعارف .

(٢) انظر د . / عبد الغني محمود * التعليم في مصر زمن الايوبيين والماليك

مظاهر ازدهار الحركة العلمية في (العصر المملوكي) :-

١ - نبوغ علماء (العصر المملوكي) وكثرة مؤلفاتهم :-

يزداد ان عصر المماليك في مصر وسوريا بنخبة من الفحول والعلماء في مختلف الميادين بحيث يصعب أن ينافسهم عصر آخر^(١) ، وذكر ابن خلدون عن حضور مصر " وما زلت ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام ألف ديواناً استوفى فيه أحكام الإعراب مجطة ومفصلة " ^(٢) وقيل وإنه عندما توفي جلال الدين السيوطي صليت عليه صلاة الغائب بالجامع الأموي كما كانت بعض مؤلفات علماء مصر من الذين اشتغلوا بالتدريس يرسل المملوك والسلاطين من البلاد الإسلامية لطلبها ^(٣) وهي فترة من أحفل الفترات التاريخية بالعلماء وأزخرها بالمدارس ^(٤) وما يدل على نبوغ هؤلاء العلماء ازدهار المؤلفات في هذا العصر . فقد كثرت كثرة مزهلة ونهضت نهضة بعيدة المدى . حتى أنه كان ينسب للواحد من علماء هذا العصر مئات من الكتب والرسائل فقد قيل إن مؤلفات جلال الدين السيوطي زادت على ست مائة كتاب وابن تيمية زادت مؤلفاته عن خمسمائة كتاب وابن حجر العسقلاني تجاوزت مؤلفاته نحو مائة وخمسين وخلافه كثير ^(٥) .

(١) انظر د . / احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٢٧٢ / ٥ مكتبة النهضة (١٩٩٠ م) .

(٢) انظر ابن خلدون " المقدمة " ص ٤٧ دار المعارف .

(٣) انظر د . / عبد الغني محمود " التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك دار المعارف ص ٢٧٤ .

(٤) انظر د . / علي السيد علي " القدر في العصر المملوكي ص ١٤٣ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

(٥) انظر د . / محمد كامل الفقي : الادب في العصر المملوكي ص ٥٣ : ٥٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ م .

٢ - الآثار الإسلامية :-

* يعتبر عصر الماليك العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية ففى مصر فقد زادت الرغبة في تشييد عدد كبير من الأبنية من جوامع ومساجد وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة كما ذاع بناء الدافن الكبيرة في عصر الماليك ، ولعل أروعها مدفن وخانقاة برقوق ومدفن قايتباى ، ومدفن برسباى بصحراء الماليك^(١) وتلك الآثار تدل على الإزدهار العلمى لذلك العصر . وذلك يجعلنا نبحث على أهم الأسباب التى ساعدت على ازدهار ونشاط الحركة العلمية فى ذلك العصر وهى :-

١ - انتشار المكتبات :-

كانت المكتبات بمثابة مدارس للتعليم فى شتى العصور الإسلامية ومؤسسات ينفق عليها السلاطين والأثرياء والعلماء لينتشر العلم بين الناس خصوصا فى زمن لم تكن فيه الطباعة متوفرة^(٢) ، فقد كانت محور النشاط العلمى ومركزا لتحصيل العلم بالبحث والدراسة فى الكتب نفسها والنقل منها تحويها من مادة علمية^(٣) سليمة .

(١) د . كمال الدين سامح : فى العمارة الإسلامية ص ٦٣ ، القاهرة .

(٢) انظر د . على سالم النباهين : نظام التربية الإسلامية فى عصور دولة الماليك فى مصر ص ٢٧٦ ، دار الفكر العربى .

(٣) انظر / د . على السيد * القدامى فى العصر السلوكى ص ١٦٩ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

٢ - هجوم التتار الشرس على العالم الإسلامي :-

عندما دخل هولوكو وجنوده بغداد في الثالث عشر من فبراير ١٢٥٨م وارتكبوا فيها الجرائم من سلب ونهب وقتل دام أربعين يوماً كاملاً فتكوا فيها بشماتة ألف وهلك في هذه المذبحة الشاملة الآلاف من العلماء والطبلا والشعراء . ونهبت ودمرت في أسبوع واحد المكاتب والكتوز التي تضافرت في جمعها قروناً طويلة وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للشران^(١) فزاد في حماسهم الخراب الذي كان التتار أن يصيبوا به بلادهم وعلماهم . كما أصابوا به من قبل البلاد الإسلامية الأخرى فكان ذلك البلاء حافزاً على تدوين الكتب وحفظها خشية من ضياع التراث الإسلامي .

٣ - الأوقاف ودورها في خدمة الحركة التعليمية :-

لقد كان للأوقاف دور هام بالنسبة للتعليم سواء كان بالمدارس أو بالمكاتب التي عرفت باسم كتاب السبيل والأوقاف هي التي دعمت نظام المدارس في العصر المملوكي فكان الربيع الذي تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة شهرياً أو سنوياً ، نقداً أو عيناً هو ضمان استمرار العمل بالمدرسة حيث تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة حسب شروط الوقف وتدوين الأوقاف

(١) انظر / أول دورات " قصة الحضارة - عصر الايمان " ٢ / ٢٨٠ .
تحقيق دور دويتا كرافولسكي ٧٠٠ هـ - ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩م

كان لا يمكن أن تقوم للمدرسة قائمة في ذلك العصر^(١) ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم في كونها المورد المالي للمؤسسة التعليمية سواء كانت مدرسة أو مكتباً لتعليم الأيتام ، بل حرص الواقفون في ذلك العصر على أن يلحقوا بكل مدرسة خزانة كتب يرجع إليها المدرسون والطلاب ، ولا سيما الفقهاء منهم مثال ذلك ما نصت عليه وثيقة وقف السلطان الغوري * فيها خلوة كبرى معدة لحزن الكتب بها جنبات خشب نقي يبنى ويسرى وصدرها مثبتة معدة لحفظ ما فيها من كتب العلم الشريف . الموقوفة على طلبة العلم الشريف لانتفاعهم بها في المدرسة المذكورة * : ^(٢) وبلغ من عناية الواقفين بأمر تعليم الأيتام أنهم لم يكتفوا بإنشاء المكاتب وترتيب المؤدبين والعمال وتوفير الطعام والكساء فضلاً عن مرتب شهري للأيتام وفوق كل ذلك حرص الواقفون على توفير أدوات الكتابة^(٣) ، وهكذا كانت الأوقاف ركناً ركيزاً وأساس التعليم بمراحله المختلفة في العصر السلوكي وقد هيأت للعلماء ولطلبة العلم كل متطلبات الحياة التعليمية .

٣ - تعظيم سلاطين الماليك لأهل العلم :-

اهتم سلاطين الماليك اهتماماً بالغاً بالعلم والعلماء فشيّدوا المدارس والمساجد والخانات وزودوها بكل مستلزمات الدراسة العلمية . واهتموا

(١) انظر / د . محمد محمد امين : الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر

ص ٢٤٠ ، الاوقاف دار النهضة العربية ١٩٨٠ م ، القاهرة .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٥ .

بالعلماء وأجزلوا لهم العطاء وقد موا لهم الاحترام والتكريم وقد روى أن الظاهر
برقوق كان إذا قدم عليه عالم انتصب قائما على قدميه ومشى له خطوات ولما
افتتح مدرسته كان يجلس مستمعا لدروس العلامة علاء الدين السراي واشتهر
الأشرف الغوري بمجالسه العلمية^(١). وهكذا فإن تلك العوامل تشابهت
وتكاثفت فكانت بمثابة محرك قوي للعلماء . د فعيم لطلب المزيد من العلم .

(١) انظر / د . محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ٢٩٦/٤
القاهرة ١٩٦٠ م .

الباب الثاني

المظاهر العامة للدعوة الإسلامية

في العصر المملوكي

ويشتمل على أربعة فصول :

- * الفصل الأول : دور سلاطين المماليك في خدمة الدعوة الإسلامية
- * الفصل الثاني : دور سلاطين المماليك في الدفاع عن البلاد الإسلامية
- * الفصل الثالث : الفتوحات الإسلامية في العصر المملوكي وأثرها في خدمة الدعوة الإسلامية
- * الفصل الرابع : أبرز علماء العصر المملوكي وأثرهم في نشر الدعوة الإسلامية

الفصل الأول
دور سلاطين الممالك
في خدمة الدعوة الإسلامية

* الباب الثاني *

* المظاهر العامة للدعوة الإسلامية في العصر السلوكي *

* الفصل الأول *

* دور سلاطين المماليك في خدمة الدعوة الإسلامية *

اعتز المماليك بإسلامهم فلم يكن يربط بينهم رابطة صهر أو قرابة وإنما ربط بينهم الدين الإسلامي الحنيف ، حتى كان السلطان في العهد السلوكي يعرف باسم سلطان الإسلام والمسلمين . وسعوا امبراطوريتهم بالمملكة الإسلامية^(١) ، وبذل المماليك قصارى جهدهم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال حفاظهم على الجبهة الداخلية بحيث كانت جهود سلاطين المماليك تتركز على محاربة الفساد ونشر الفضيلة والعدل ومحاولة بناء مجتمع إسلامي يكون عوناً له في جهادهم مع أعداء الأمة الإسلامية . وأول من سعى في تحقيق ذلك السلطان الظاهر بيبرس الذي يعد بحق المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الأتراك ولم يكن يدعو إلى شيء يفقده فقد كان رحمه الله كما قال ابن كثير :-

* كان شجاعاً عالي الهمة بعيد الغور مقداماً جسوراً معتنياً بأمر السلطنة ، يشفق على الإسلام متحلياً بالملك ، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله^(٢) .

(١) انظر د . علي إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ص ٢٠١ ، ط / النهضة المصرية ١٩٦٢ م .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جز ١٣ ص ٢٧٥ ، دار الفكر العربي .

وستتناول بالدراسة أهم الأعمال التي ترقى أنها مفخرة لسلطان المسلمين الماليك ومساهمة إيجابية وفعالة في خدمة الدعوة الإسلامية .

أولاً : إحياء الخلافة العباسية :-

أحدث سقوط الخلافة العباسية على أيدي التتار رعباً للمسلمين ففسى العالم الإسلامي ، وظل المسلمون بدون خليفة ثلاث سنوات حتى أحيى الظاهر بيبرس الخلافة العباسية سنة ٦٦٦ هجرية ، وإن كانت عادت شكلاً فإنها كانت رمزاً لوحدة المسلمين وفي الواقع أن الأمم الإسلامية كانت في هذا الوقت متعلقة بأهداب الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال^(١) ، فقد كان للخلافة هبة في نفوس الأعداء وحسن منيع للمسلمين سعوا إلى محاربتها ، حتى أن السير وليم موير جعلها من أعمال السلطان بيبرس المجيدة حيث قال " ومن جميل أعماله أنه أعاد الخلافة إلى المسلمين " .^(٢)

ثانياً : محاربة الفساد :-

بعد استقرار السلطة لتولي السلطان الظاهر بيبرس ، سعى سلاطين الماليك إلى بناء الدولة الإسلامية على أسس إسلامية صحيحة فبدلوا الجهود

(١) انظر د . / محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ٦١ ، دار الفكر العربي ١٩٦٠ م .

(٢) السير وليم موير : تاريخ دولة الماليك البحرية ص ٥٣ ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن - المعارف - القاهرة .

لمحاربة الفساد الذى دائما يكون العقبة فى الجهود الإصلاحية .

فكان الملك الظاهر بيبرس لا يرى شيئا من الفساد إلا سعى فى إزالته بجهده وطاقته . فحارب الخمول والانحلال الخلقى فرسم بإقامة الخمسور وقضى على أماكن الفساد . فضيقوا على أهل النكر وسلبوا جميع ما كان معهم حتى يتزوجن^(١) ، وكتب إلى جميع البلاد بذلك فضاقت بهم سبل العيش فى عهده وقل عدد هم واستراحت البلاد من مفاسدهم . ولم تكن قرارات الملك الظاهر بمحاربة الفساد قرارات نظرية وإنما طبقت بصرامة من جانب قواته ولم يكف بذلك بل كان يتفقد الرعية بنفسه متشبها بذلك بالخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم .

فقد ذكر المقرئ عن بيبرس* أنه نزل ذات مرة من قلعة الجبل بالليل متنكرًا . وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس ، فرأى بعض المقدمين قد أسك امرأة وغراها سروالها بيده . ولم يجسر أحد ينكر عليه فعاقبهم السلطان بأن قطع أيدي جماعة من نواب الولاة والمقدمين ، والخفراء*^(٢) ، حتى قيل فى ذلك :-

ليس لإيليس عند نسا إرب فغير هذى البلاد مأواه
حرمة الخمر والحشيش معاً أعدته ماء ومرعاه

(١) انظر المقرئ ، السلوك لمعرفة دول الملوك جزء (١) ص ٥٤٠ .

القاهرة ١٩٧٠ م .

(٢) المقرئ : السلوك (١ / ٥٤٠) ، القاهرة ١٩٧٠ .

وصار سلاطين الماليك من بعده على ذلك الضرب فكان للسلطان
الناصر محمد بن قلاوون دور بارز لمجابهة الفساد فقد رسم بإقامة الخمور
وسنع من التظاهر بشيء من المنكرات ، ويبدو أنه في الفترة التي تلت سلطنة
الظاهر بيبرس تسربت بعض مظاهر الانحراف . ومن ثم فإن الناصر قلاوون
جعل مجابهة هذه الانحرافات ^(١) في الأولوية بالنسبة لإصلاحاته وشدد كل
من الظاهر جقق والملك المؤيد في الخمور وأمر بإحراق ما يوجد في مظانها ^(٢).

ولاشك أنهم لم يشددوا في إبطال هذه المنكرات إلا لئلا يمانهم بأن تلك
المنكرات تورث الفقر والذل وتخذل الهمة وتضعف النفس ، إذ أن الخمر من
أفحش الذنوب وأعظمها خطرا على المجتمع الإنساني كله لذلك حرّمها الشارع
وشدد في تحريمها وفي ذلك يقول الله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّمَّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَإِجْتَنِبُوا
لَعَلَّكُمْ تَكَلِّحُونَ " ^(٣) فوصف الله تعالى الخمر بأنه رجس أي قد رتنفر منه العقول
السليمة وهو لفظ يدل على منتهى القبح والخبث ^(٤) . وكذلك العيش حيث

(١) انظر/ د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب
الصليبية ٢٧٤/٣ .

(٢) انظر ابن حجر العسقلاني ، التاريخ والمنهج التاريخي ص ٣٩٩ .

دار اقرا ، ط / ١٩٨٤ م .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٩٠ .

(٤) انظر عبد الرحمن الجزيري ، الفقه على المذاهب الأربعة حاشية ١١/٥ .

دار الفكر العربي .

زعم بعض الفساق أن الحشيش ليست محرمة ولكن كلمة العلماء اجتمعت على
تحريم هذه المشروبات وغيرها من المخدرات المحدثه . وقد قال علماء
الحنفية في ذلك * إن من قال يحل الحشيشة زنديق مبتدع *^(١) ولذلك
كان محاربة سلاطين المالكيك لهذا الفساد عملاً جليلاً للدعوة الإسلامية .
ولعبت الحسبة^(٢) دوراً هاماً في محاربة الفساد فيذكر أن المحتسب فسي

(١) عبد الرحمن الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة حاشية ٢٥/٢٣٠ ،
دار الفكر العربي .

(٢) الحسبة : معناها في اللغة تدل على العدو والحساب، ويقال احتسب
بكذا إذا اكتفى بها ، واحتسب على فلان الأمر ، انتبه عليه .
واحتسب الأمر على الله : أدخره لديه
والحسبة اسم من الاحتساب والاحتساب يستعمل في فعل ما يحتسب
عند الله تعالى .

معناها في الاصطلاح : الحسبة عند الفقهاء امر بالمعروف اذا ظهر
تركه ونهى عن المنكر اذا ظهر فعله . ودليل مشروعيتها وورد آيات
كثيرة تدل على ذلك منها قوله تعالى * وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ *
سورة آل عمران آية ١٠٤ .

* وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ * سورة التوبة من الآية ٧١ هـ .
انظر / د . عبد الكريم زيدان ، اصول الدعوة ص ١٧٤ ، مكتبة
القدس .

العضر المملوكي كان يريق الخمر . وشغلت المرأة جانباً كبيراً من اهتمام الحسبة . فكان المحتسب يراقب المرأة وما ينبغي أن تكون عليه وما يحرم عليها فعله وارتداؤه . ومنع النساء من الجلوس على أبواب بيوتهن فوسى طرقات الرجال وذلك العمل يتفق مع الشرع حيث إن الله تعالى يقول :

« وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » (١) .

ولم تقتصر محاربة الفساد على الخمر والانحلال الخلقي فقط وإنما تعدى إلى محاربة الرشوة ذلك الوباء الذي يقضى على ثروة العمل وكرامان للسلطان الناصر محمد بن قلاوون دور فعال في محاربة الرشوة فعاقد (٢) عليها فلا يتقبل المناصب إلا مستحقوها . وذلك نجده قد أخذ بقول الله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (٣) .

وفي قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ » (٤) . ومارواه الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعن الله الراشي والمرتشى (٥) .

(١) سورة الاحزاب من الآية ٣٣ .

(٢) انظر عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار ص ٣٤٠ ، دار الجيل - بيروت .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٤) سورة النساء من الآية ٢٩ .

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جزء ١٥ ص ٣٨٢ .

فقال العلماء* : الراشى هو الذى يعطى الرشوة والمرتشى هو الذى يأخذ الرشوة وإنما تلحق اللعنة الراشى إذا قصد بها أذية مسلم أو ينال بها مالا يستحق^(١) .

ثالثا : معاربة البدع والفتن :-

يرجع أصحاب الدعوات الهدامة البدع والفتن لتحقيق مآربهم وتقصف تلك البدع عقبة فى طريق الدعوة الإسلامية . عالم تجد من يكشف قناعها ويوضح حقيقة أمرها . وروجت البدع فى العصر المملوكى حتى أن ابن كثير يعتبر إبطال بدعة نصف شعبان من العجائب فيقول* ومن العجائب والغرائب التى لم يتفق عليها . ولم يقع من نحو مائتى سنة أو أكثر ، أنه أبطل الوعيد بجامع دمشق فى ليلة النصف من شعبان*^(٢) وكان ما استقر فى ذهن العامة أن من أبطل ذلك سموت فى نفس العام^(٣) فكان مرسوم السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بإبطالها فبطلت . وهذا إن دل على شىء فإنه يدل على خطورة الأمر وسيطرت تلك البدع على عقول الناس فى ذلك الوقت . وانتشرت الفتن فى الأسواق والحمامات العامة واحتفالات النصارى بعيد الشهيد حيث يزعم النصارى أن لديهم تابوت فيه إصبع يزعمون أنه إصبع بعض شهدائهم وأن النيل لا يزيد عالم يرمى

(١) الذهبى ، الكباير ص ١٤٣ ، مكتبة المتنبى .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جزء ١٤ ص ٢٣٥ ، دار الفكر العربى .

(٣) نفس المرجع السابق .

فيه هذا التأبوت ويحضر ذلك جمع كبير من النصارى ويمتلئ البر بالخسيم والبحر بالمراكب المشحونة بالناس ويحدث في ذلك الفتن والفتن ولا يقتصر الأمر على مشاركة عامة المسلمين ذلك الاحتفال . وإنما شارك في الاحتفال الأمراء وعن تلك الفتن يحدثنا المقرئ " ولا يبقى صاحب غنا ولا لهو حتى يحضر ، وتتبرج زواني سائر البلاد ، ويبيع في ذلك اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم ^(١) ، ويزيد من خطورة الأمر أن العامة تعتقد أن زيادة النيل متوقفة على رمي هذا التأبوت ، ولم يكن الأمر سهلاً لإبطال تلك الفتن لولا شجاعة الأمير بيبرس الجاشنكير الذي كتب إلى جميع الولاة بالنداء ألا يخرج أحد إلى عمل عيد الشهيد فعظم ذلك على النصارى وسيروا إليه تاج بن سعيد لتمككه من الأمير بيبرس . فأخذ يحذره من تأثير ذلك القرار على الخراج . فلم يلتفت إليه وصم على إبطاله ^(٢) .

وكان عيد الشهيد يحضر مثل ما كان يفعله المصريون في كل ليلة عرس بالقاهرة جارية حسنة في النيل ^(٣) . ويؤمنون أن النيل لا يزيد إلا بالقاهرة تلك الجارية في النيل ، فبطل ذلك على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزالت تلك العادة السيئة عن أهل مصر ، وعرف سلاطين السالكين خطورة تلك الفتن على الدعوة الإسلامية ولذلك نجدهم ينكسرون كل ما يؤدى إلى الفتنة .

(١) المقرئ ، السلوك ١ / ٢٤٠ ، القاهرة ١٩٧٠ م .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠ .

(٣) انظر ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ١ / ٥٦٧ ، القاهرة

فقد حدث أن توقف النيل لمدة سبعة أيام في مدة حكم الملك المؤيد
فنودي في الناس بصيام ثلاثة أيام ثم خرجوا إلى الصحراء يستسقون وحضر
السلطان والقضاة والمشايخ وكثر الجمع جدا وجلس السلطان على الأرض وصلى
بهم القاضي ركعتين كهنية صلاة العيد ثم رقا شبرا وضع له هناك فخطب
خطبتين حث الناس فيها على التوبة والاستغفار وحذرهم ونهاهم ثم تحول فوق
النهر والسلطان في ذلك يبكي وينتحب وقد باش في سجود التراب بجيبته .
ثم ركب السلطان والعامّة يحيط به فدعا له بعضهم بالنصر فقال سلوا الله
فإنّا أنا واحد منكم . ونودي في صباح ذلك اليوم بزيادة النيل اثني عشر
ذراعا فاستبشر الناس بإجابة دعواهم ونودي مرة ثانية بزيادة النيل فاتفق أن
السلطان سيح في النيل وهو في بيت كاتب السر الذي على شاطئ النيل
فاستبشر الناس وقالوا إن ذلك ببركة السلطان فسمع ذلك وأنكره^(١) عليهم
وقال لو علمت بسياحتي يحدث ذلك ما سبحت لأن مثل ذلك تفضل به العامة
فهكذا كانت صفات الملك المؤيد شجاعا عالي الهمة كثير الرجوع إلى الحق معيا
للشرع وأهله صحيح العقيدة^(٢) كثير التنظيم لا أهل العلم والإكرام لهم وهو
بذلك يدرك خطورة تلك الفتن على العامة خاصة . وقد عرف الشيخ عيسى
محمود ذلك فقال " إِنَّ الْأَوْهَامَ مَرَضٌ عَامٌ مَكْرُومٌ مَنْتَشِرٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَّا أَنَّ
الْمُتَعَلِّمَ الْعَاقِلَ يَقْوَى عَلَيْهِ فَيُضَعِّفُهُ وَغَيْرُهُ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ مَرْتَعًا لَهُ يَمْسَحُ

(١) انظر ابن حجر العسقلاني ، التاريخ والمنهج التاريخي ٢٢٠ / ٣ .

دار إقرا ط / ١٩٨٤ م .

(٢) المرجع السابق ٢٢٧ / ٣ .

فيه ويرج وأكثر أوهامهم في المسائل الدينية^(١) فكان دورهم في محاربة ذلك حرصاً منهم على اتباع الحق . فحاربوا البدع على يقظه تعالى "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"^(٢) فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعى إليه وهو السنة والسبيل وهو سبيل أهل الإختلاف الحائرين عن الصراط القويم وهم أهل البدع والأهواء^(٣) . عن عائشة - رضى الله عنها - قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد "^(٤)

رابعاً : القضاء على فرقة الحشاشين بسوريا :-

فرقة الحشاشين هي من أهم الجماعات التي نشرت الدعر في كثير .

-
- (١) على محفوظ الابداع في مضار الابتداع ص ٤٤١ ، دار الاعتصام .
 (٢) سورة الانعام الآية رقم ١٥٣ .
 (٣) انظر / على محفوظ ، الابداع في مضار الابتداع ص ٩٢ ، دار الاعتصام .
 (٤) عمدة القارى شرح صحيح البخارى ، الجزء الحادى عشر والثانى عشر ، ط / اولى ، مكتبة ومطبعة البابى الحلبي ص ١٩٣ .

من البلاد الإسلامية خاصة خلال عهد الأتراك السلاجقة^(١) واشتهروا بالتآمر والقدر والقتل وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح وهو في الراجح فارس من طوس وأنه ادعى غير ذلك وقد درس في حياة مذهب الباطنية واعتنقها واحتل السلطان بيبرس حصونهم بسوريا سنة ١٢٧٢ م ، فتشتت شملهم منذ ذلك الحين وذلك تخلص المسلمون من " تلك الفرقة التي عيثت بالقيم والمبادئ ، وامتد نشاطها في الدس والاعتيالات^(٢) حتى أصبحت خطرا جسيما على الإسلام والمسلمين " .

(١) السلاجقة أو آل سنجوق : دولة تركية انشأت في عهد العباسيين اتو في الاصل من السهول الواقعة شمال بحر قزوين وهم ينتسبون الى سنجوق احد مقدميهم الذي أفرهم في القرن العاشر للهجرة الى بخارى . حيث اسلموا ولقب حفيد طغرل بك سلطانا واستولى على خراسان وغيرها من الولايات الايرانية ، سنة ١٠٥٦ م استولى على بغداد واستقر بها تابعا للخليفة ولقب امير الامراء ، وتوفي سنة ١٠٦٤ ميلادية وخلفه ابن اخيه ألب ارسلان وتوفي سنة ١٠٧٣ ميلادية وخلفه ابنه مالك شاه فجعل اصفهان عاصمة مملكته التي كانت تمتد من حدود الصين الى القسطنطينية وبعد وفاته سنة ١٠٩٣ اختلف اخيه وأولاده الاربعة على الخلافة نشأت حروب أهلية نتج عنها انقسام الدولة السلجوقية بين اربعة افرع اهمها كان في بلاد فارس وانقرضت مملكته سنة ١٣٠٨ م فاستولت الدولة العثمانية على اكثر بلادهم .

المرجع : بطرس البستاني ، دائرة المعارف ٧١٦/٩ .

(٢) د . / احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٢٣٦/٥ مكتبة النهضة

خامسا : الدعوة إلى الله بالسلوك وأعمال البر :-

إن الدعوة إلى الله بالسلوك والقُدوة الحسنة أوقع أثرا وأعظم نفعا من الدعوة إلى الله بالكلمة وانتهج معظم سلاطين المماليك السلوك القويم . فبعدل سلاطين المماليك لجا^٤ت إلى مصر طوائف التتار التي فرت من حكم قائدهم وقد اعتنقت هذه الطوائف الدين الإسلامي ورحب بهم سلاطين المماليك وعرفوا بالوافدين^(١) . وقد ذكر أن الملك الناصر محمد بن قلاوون أسقط جميع النقوش من أعمال المماليك المصرية والشامية وكان لا يقضى إلا بالحق .

وراك البلاد بالمعرك الناصري^(٢) وكان يغير الشيخ (الحسن) بين الإقطاع والراتب فيعطيه ما يحتاجه وكان سبب صدور المعرك الناصري أن أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلاز وجباعة من البرجية كان نصب الواحد منهم مائة ألف شقال في السنة إلى ثلاثمائة شقال وكان رحمه الله عادلا فما يذكر أنه كان إذا دخل جندي وتحدث عنه الأمراء بالمعرك ليزيد له السلطان فسي

(١) د . / احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٢٤٠ / ٥ مكتبة النهضة سنة ١٩٩٠ .

(٢) المعرك الناصري : المعرك كلمة قبطية قد اصطلح على استعمالها القيام بعملية قياس الارض وحصرها في سجلات وتنميتها أي تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها ، ويقولون راك البلاد ويروكها أي فسك زمامها ويقال المعرك في الوقت الحاضر علينا فك الزمام راك البلاد المصرية وكتب بها مقالات سلطانية أي قوائم مساحية رسمية بما يخص كل واضح يد (انظر ابن تغري : النجوم الزاهرة ٩ / ٤٢) .

إقطاعه^(١) خالفهم السلطان وأعطاه ما يستحق فقط ما أُجبر الأُمراء على السقوط . وشمل عدل الملك الناصر أهل الذمة فكان ذلك دافعا في دخول الكثير في الإسلام فلعل خير ما يترجم عن بعده عن روح التعصب الزميمة الذي كان سائدا في الشرق وفي الغرب على السواء ، فأوقع من اقتصاصه من رجل مسلم قتل مسيحي بغير حق وذلك أنه قدم بالقاهرة من دمشق رجل من أهل التصوف وقد رأى أثناء وجوده شخصا مسلما قد أقبل على نصراني فقبل يديه ويرجوه في أمر من الأمور . ولاحظ هذا الصوفي أن النصراني منصرفا عن السلم فألمه ذلك أشد الألم وتقدم من النصراني وقتله واجتمع الناس حول القاتل والقتيل أما المسلم الذي أثار هذه المشكلة فقد اختفى وقبضت الشرطة على القاتل ، ورفع أمره إلى السلطان فأمر بضرب عنقه^(٢) على باب القلعة جزاء وفاقا لاعتدائه بغير حق على ذلك النصراني . ولو نظرنا لتلك الواقعة ورجعنا بالحكم الشرعي في ذلك لرأينا أن الفقهاء اختلفوا في ذلك الأمر . وقال المالكية يقتل الأديني صفة بالأعلى كزبي قتل مسلما أو كحر كتابي يقتل بعبد مسلم ، لأن الإسلام أعلى من الحرية ولا يقتل الأعلى بالأديني كمسلم بكافر وكمسلم رقيق بالحر الكتابي .

(١) انظر ابن تيمية : النجوم الزاهرة ١٩٨/٩ .

(٢) انظر محمد عبد العزيز مرزوق : الناصر محمد بن قلاوون ص ٢٩٢ .

المؤسسة المصرية العامة .

قال الشافعية والحنابلة ببطلان قتل المسلم بزي .

أما الحنفية قالوا بقتل المسلم بالزنى لأن الله تعالى قال * الْحُرُّ بِالْخَيْرِ وَالْعَبْدُ بِالسَّيِّئِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى * ^(١) وقالوا الزنى مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأييد والمسلم كذلك وكلاهما قد صادق أهل دار الإسلام ، والذي يحقق ذلك أن المسلم تقطع يده بسرقة مال الزنى وهذا يدل على أن مال الذي قد سارى مال المسلم يدل على مساواته بدمه ، إذ المال إنما يحرم بحرمة ماله ^(٢) واحتجوا بما روى محمد بن الحسن عن إبراهيم رحمه الله تعالى * أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة ورفع ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال * أنا أحق من وثي يذمه ، ثم أمر به فقتل * ^(٣) وقد أخذ الملك الناصر قلاوون بالذهب الحنفي حين حكم بقتل الرجل المسلم الذي قتل المسيحي بغير حق ويعتبر ذلك في قمة العدل إذا ما قورن بالمجتمعات الغربية والشرقية على السواء في عصره .

هذا إلى جانب تعدد أعمال البر في العصر المملوكي فأقاموا التكايا : وهي مؤسسات عرفت في هذا العصر يقدم فيها المأكولات للمعاطلين ^(٤) والأسبلة أمكنة للشراب عرفت بالسبل أقيمت لأننا السبل كما أقاموا المؤسسات الخيرية

(١) سورة البقرة من الآية رقم ١٧٨ .

(٢) انظر عبد الرحمن الجريزي ، الفقه على المذاهب الأربعة ٢٨٢ : ٢٨٥

(٣)

(٤) انظر د . احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٢٧٤ / ٥ مكتبة

النهضة ١٩٩٠ .

السخطة علا بقوله تعالى * وَأَن ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ وَلَا تُبْدِرْ بَدْرًا * (١) فأقام الملك النصور قلاون ببيمارستان وعنه يقول السيد ولیم مویر * أن الذي جعل أكسنة الناس تلهج بالشناء عليه ، والإعتراف بحسن صنيعه هو ذلك البناء الضخم الذي شيده في المدينة والذي يشمل ببيمارستان ومدرسة تحتوي على قبة فيها قبره . وقد أعد فيه غرفا مستعملة وفرشها بالأسرة للمرضى من الفقراء والأغنياء وعين فيه محاضرين وذود وهما بعمل كيماء بكل أنواع المعدات الطبية وعين فيها خمسين من القسراء يتلون آيات الله ليلا ونهارا وفي ذلك يقول الله تعالى * وَتَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا * (٢).

وأقام مدرسة وملجأ للأيتام (٣) ، إلى جانب ذلك ظهرت الموائد الرضائية ووجدت أوقاف على تكفين أموات الغرباء (٤) بالقاهرة ومصر . وقد حدث أن اشتد الحال بالناس سنة ٦٦٢ هـ . وعدت الأقوات وضج الفقراء بالجوع وكان ذلك في عهد الظاهر بيبرس فأحصاهم وكلف كل أمير بالإتفاق على عدد معين منهم وتولى هو بنفسه خمسمائة فقير (٥) ، علا بقوله تعالى * وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنَتِهِمْ وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * (٦) فهذا كان سلوك السلاطين المالكيك عظيما للدعوة الإسلامية .

(١) سورة الاسراء اية ٢٦ . (٢) سورة الاسراء اية ٨٢ .

(٣) انظر ولیم مویر ، تاريخ دولة المالكيك البحرية ص ٦١ .

(٤) انظر ابن تغري ، النجوم الزاهرة ٢/ ١٨٠ .

(٥) انظر محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ٢٢ ، دار

الفكر العربي سنة ١٩٦٠ م . (٦) سورة الانسان اية ٨ .

سادسا : أعمار المساجد :-

للمسجد مكانة عظيمة في الإسلام فعمارهم صفة خلق الله من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من عباده المؤمنين وقال الله سبحانه وتعالى عن عمار المساجد * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ ^(١) ووعد الله سبحانه وتعالى من بنى له بهتاء في الأرض أن يسجدوا لله تعالى بنسبى الله له بيتا في الجنة كما في حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول * من بنى لله مسجدا بنى الله له كهيبته في الجنة * ^(٢) واهتم سلاطين المماليك بإنشاء المؤسسات الدينية عامة والمساجد ^(٣) بصفة خاصة في محاولة لتقوية رباط الدين بين أبناء الأمة الإسلامية وحرصا منهم على إحياء الشعائر الإسلامية حتى قال عنها القلقشندي * إنها أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى ^(٤) . وفي هذا المجال قامت الأوقاف بدور كبير من أجل تقديم المساجد والجوامع وتمكينها من أداء رسالتها ويمكن أن نقول إن قوة الشعور الدينى التى وجدت فى العصر المملوكى صاحبها ازدهار الأوقاف وانتشارها ^(٥) . فأصبحت المساجد فى العصر المملوكى مركزا للإشعاع الفكرى والحضارى وذلك بأن السلاطين

(١) سورة التوبة آية ١٨ .

(٢) سند الامام احمد بن حنبل ، المجلد الاول ، دار الفكر العربى ص ٢٠

(٣) للمزيد عن مساجد العصر المملوكى راجع د . سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ٤/٣ ، القاهرة .

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ٣/٢٦٥ ، الهيئة المصرية .

(٥) انظر د . محمد محمد امين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص ١٨١

والأمراء أوقفوا عليها الأموال والأراضي تشجيعاً للعلم والعلماء وقد أدت المساجد رسالتها العلمية وأسهمت في نشر الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية^(١).

وفي حديثنا عن دور الماليك في إعمار المساجد لابد أن نشير إلى دور الراحلين من سلاطين الماليك في إعادة الأزهر مجده .

استرداد الأزهر مكانته :-

ظل الأزهر محروماً من إقامة صلاة الجمعة فيه ثمانية وتسعين عاماً من سنة ٥٦٧ هـ حتى سنة ٦٦٥ هـ / سنة ١١٧١ حتى سنة ١٢٦٧ ميلادية وقد استغرقت هذه السنوات حكم الدولة الأيوبية وزهاء سبع عشرة سنة من حكم دولة الماليك البحرية وعاش الأزهر طيلة هذه الفترة متخلفاً عن مساجد القاهرة بعد أن كان المسجد الأول في الديار المصرية . والمسجد الرسمي للدولة في العصر الفاطمي^(٢) ويرجع ذلك إلى سياسة الأيوبيين التي كانت تهدف إلى محاربة التشيع وما أن الأزهر كان بؤرة الإشعاع للذهب الشيعي في العصر الفاطمي فقد اصطدم الأيوبيين بالأزهر كجامع وجامعة . إلا أن الماليك أحسنوا التصرف حينما حاربوا الفكر بالفكر فجعلوا الأزهر مركزاً

(١) انظر د . فتحية الخبراوي : تاريخ النظم الإسلامية ص ٢٧٥ .

(٢) انظر عبد العزيز محمد الشناوي : بحث في كتاب دراسات في

الحضارة الإسلامية ص ٦٦ : ٦٨ .

للإشعاع الفكري والحضارى وقوة عليوية تدافع عن المذهب السنى وتنشئ سره
وأعيدت الخطبة فى الجامع الأزهر فى عهد بيمبرس وقد ست الهبات وتوالست
إمارتهم لميناء فاجتذب الأزهر إليه صفوة من العلماء من أنحاء العالم
الإسلامى وبذلك أعيد للأزهر مكانته وقد قال القلقشندى : "إن الجامع
الأزهر قد أخذ منذ ذلك الوقت يتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة
قدرا" (١).

سابعاً : إكرام العلماء والدعاة :-

اهتم سلاطين المماليك بالقائمين على أمور الدعوة الإسلامية فعينوا
للمساجد دعاة ومؤذنين ومعالماً وأنزلوا لهم العطايا ورفعوا من شأنهم فتولوا
المناصب الرفيعة فى الدولة كالوزارة ونظارة بيت المال ونظارة الخاى وكتابه
السر والقضاة .

ثامناً : تعظيم الأماكن المقدسة :-

عظم الله الأماكن المقدسة فعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد
الأقصى (٢) وجعل الله البيت الحرام محطة أنظار المسلمين فكل مسلمى

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ٣ / ٣٦٤ ، الهيئة المصرية العامة

للكتاب ١٩٧٧ م .

(٢) صحيح مسلم فى شرح النووى - المجلد السابع ج ٩ كتاب الحج باب

فضل المسجد الثلاثة ص ١٦٧ .

العالم يتجهون إليه في صلواتهم * ومن حيث خرجت قول وجّهك شطراً
 المسجد الحرام * (١) ويحجون إليه طلباً للإستغفار والرحمة فيقول الله تعالى
 * ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً * (٢) وفي قوله * وآذّن
 في الثاني بالحج يأثوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * (٣) .

وعظم المسجد الأقصى فكان سرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
 سبحانه وتعالى * سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِرَبِّهِ كَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى
 الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا * (٤) وأولى سلاطين
 المالِك الأماكن المقدسة اهتماماً وتقديراً عظيماً فبالفوا في احترام أملاكها
 وأهلها ففي سنة ٦٦٧ هـ قدم السلطان بيبرس إلى مكة المكرمة في الخامس
 من ذي القعدة وفي لأحد الناس لا يحجبه أحد وغسل الكعبة الشريفة بيده
 وحمل الماء على كتفه (٥) بالقرية ، وغسل البيت وجلس على باب الكعبة وأغسل
 بأيدي الناس . وسبل البيت الحرام للناس وعمر الحرم النبوي الشريف . ولم
 يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين بل أمر سنة ١٢٦١ بإرسال الصناع
 والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقُدس وحدد مسجد إبراهيم عليه السلام (٦) . وقد

(١) سورة البقرة من الآية رقم ١٤٩ .

(٢) سورة آل عمران من الآية رقم ٩٧ .

(٣) سورة الحج الآية رقم ٢٧ .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ١ .

(٥) انظر العيني : عقد الجنان ٤٦/٢ .

(٦) د / احمد مختار العبادي : قيام دولة المالِك الاولى في مصر

والشام ص ١٩٧ .

ذكر عنه الناصر محمد بن قلاوون حج سنة ثمانى عشرة وسبع مائة ووزع على فقراء مكة نحو عشرين ألف دينار وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التى كانت بمكة ، ثم بعد ذلك توجه إلى المدينة الشريفة فدخلها ماشيا^(١) على أقدامه وقيل فى ذلك :-

د نوت تواضعا وعلوت مجدا فثأناك انخفاض وارتنفاع
فذاك الشمس تبعد إن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وزار قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهو مكشوف الرأس ثم وزع على فقراء المدينة عشرين ألف دينار كما فعل بمكة ، واهتم أيضا بمعظم سلاطين المالكة بالأماكن المقدسة بما فى ذلك بيت المقدس^(٢) ، واعتبر سلاطين المالكة إقليم الحجاز والأماكن المقدسة جزءا لا يتجزأ من ملكتهم الإسلامية وشعروا بالمسئولية تجاه رعاياها ويؤكد ذلك تلك الحادثة . فقد ذكر أن الملك الظاهر بيبرس بلغه أن الشريف محمد بن تقي بن سعيد حاكم مكة والمدينة المنورة وقع منه ظلم للتجار والحجاج والمالين والواردين إلى الحرمين الشريفين وتجاوز الأمور وخرج عن الحد فكتب إليه . أما بعد فالحسنة فى

(١) انظر / ابن اياس : بدائع الزهور من وقائع الدهور ج ١ القسم الاول ص ٤٤٩ تحقيق محمد مصطفى : الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٠
(٢) للمزيد عن اهتمام سلاطين المالكة ببيت المقدس ، راجع د . محمد سيد على : القدس فى العصر المملوكى تحت عنوان " الانجازات والمنشآت ذات الدلالة الدينية التى انشئت فى العصر المملوكى لبيت المقدس ص ٢٧ : ٣١ .

نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أقبح . وقد بلغنا أيها السيد أنك بدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة وفعلت ما يحرر الوجه ويسود الصحيفة . فكيف تفعل القبيح وجسدك الحسن وتضيع الغروض ومن بينكم عرفت الغروض والسفن وتقاتل حيث لا تكون فتنة وأنت من أهل الكرم وساكن الحرم . فكيف آويت المجرم وأسفكت دم المحرم ومن يهن الله فعاله من مكرم ، فإن لم تقف عند حدك أغدنا فيك سيف جدك والسلام " فكتب إليه الجواب " أما بعد فالملوك معترف بذنبه نائب إلى ربه . فإن أخذت فأنت الأقوى وأن تمنعوا أقرب للتقوى ^(١) . فهكذا نعت الأماكن المقدسة في العصر الملوكي بعناية خاصة وإن دل ذلك إنما يدل على تعظيم سلاطين الممالك للإسلام وزادهم ذلك احتراماً من الرعية .

تاسعا : تربية النشئ من الممالك تربية إسلامية :-

يعتبر تربية النشئ من الممالك تربية إسلامية هي القاعدة التي انبثق منها العمل الإسلامي لخدمة الدعوة الإسلامية في ذلك العصر حيث كان لسلاطين مصر وقتئذ عناية بالممالك من جميع الأجناس واحتفال زائد بتربيتهم وكانوا يسكنوهم القلعة في طباق مخصصة ويسلم الملوك الصغير إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة وكان لكل طائفة فقيه يعلمهم أمور الدين والآداب ، والقرآن . فإذا شب وقوى سلم المعلم يعلمه أنواع الحرب وفنون الغروسية ونسب

(١) انظر/ محمد بن علي الاسماعي : اخبار الاول فمن تصرف في مصر من ارباب الدول ص ١٤١ .

ذلك نظام تربوي بناءً هادف لخدمة الإسلام والمسلمين . إذ أن القسوة وحدها دون إيمان لا تكفي لبناء مجتمع إسلامي . فخضوع الملوك لتلك التربية الإسلامية هو ما جعلنا نجد في سلاطين المماليك النزعة الإيمانية . وفي ضوء ذلك يمكن تفسير الأحداث التاريخية في ذلك العصر . فنجد أن السلطان سيف الدين قطز عندما وجد علامات القلعة لدى بعض الأمراء . خاطبهم بروح الإسلام وأيقظ فيهم شعيرة الجهاد . فخرجوا بالبيكاه . وذلك قضى على الإنهزامية في صفوف جيشه . وما حدث أثناء إقدام ستقر الأشقر عند مصارعة على السلطة مع السلطان المنصور قلاوون وعزم على قتال الجيش المصري فوجه إليه قلاوون خطاباً يذكره بمصلحة الأمة الإسلامية فعدل عن ذلك ويفسر لنا تعدد أعمال البر في ذلك العصر . حتى أننا نجدهم حريصين على نشر الغضيلة بين أفراد رعيته فقد ألزم الظاهر بيبرس رجال حاشيته^(١) بأداء الصلوات في أوقاتها ليكونوا قادة الشعب في الأمور الدينية . كما هم قادرون في الشؤون السياسية وكان هو مثلاً أعلى في ذلك . حيث يذكر أنه كان رحمه الله ملازماً للصلوات الخمس في أوقاتها سفراً أو حضراً^(٢) . وذلك لأنه يعلم جيداً أنها الصلة بينه وبين ربه . ولأنها الماحية للذنوب .

(١) انظر / د محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٤ ،

دار الفكر العربي ١٩٦٠ م

(٢) انظر / د حامد عليم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر

الحروب الصليبية ٢٧٣/٣ .

فحقا لقد تربوا في كل مدارس الحرب والسياسة ، فكانوا وهم صغار متعلمين بالعلوم ، والفلسفة ، والدين ، فضلا عن الفروسية واستعمال السلاح . وذلك كانوا جازئين^(١) لجميع الصفات التي تؤهلهم لمركز القيادة وأنهم برعوا في الفنون الحربية ، بحيث كانوا سادة يد يرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل^(٢) .

(١) انظر / دراسة رشدي . مصر الشراكسة من ١٣٨٠ ، القاهرة ١٩٤٨

(٢) د / عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك ص ٢٦

مكتبة الانجلوا المصرية ١٩٧٨ م .

الفصل الثاني
دور سلاطين المماليك
في الدفاع عن البلاد الإسلامية

٦٥ الفصل الثاني

دور سلاطين الماليك في الدفاع عن البلاد الإسلامية *

زامن سقوط الدولة الأيوبية وانتقال السلطة من الدولة المملوكية أن تعرض العالم الإسلامي للأخطار كثيرة هددت كيانه . وفي مقدمة هذه الأخطار في الشرق الأدنى يأتي خطر التتار . بالإضافة إلى الخطر الصليبي الذي كان موجودا من قبل . فضلا عن الأخطار التي هددت دولة الماليك من جانب النهضة جنوفا والتركمان (١) شمالا وسنتناول بالدراسة الدور البطولي لسلاطين الماليك من خلال جهادهم المتواصل ضد الأعداء المتربصين بالأمة الإسلامية سلطين الأضواء على الدور البارز لسلاطين الماليك في إحياء شعيرة الجهاد . فكان لابد لهم من الاستعداد للعدو وعلا بقول الله تعالى : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَتَرْتِيبًا لِلْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ۖ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ " .

تكوين جيش قوي :-

قامت الدولة المملوكية على نظام حربي فريد حيث يتلقن المملوك فنون الفروسية وهو في سن مبكرة بالطباق وهيئابة المدرسة الحربية في ذلك الوقت فضم الجيش المملوكي جنودا مدربة تدريباً عسكرياً جيداً . فسار الجيش المملوكي في ذلك العصر من أقوى الجيوش عددا وقوة . بحيث تغلب على أكبر جيوش الأرض كالصليبيين والمنغول . حتى عرف الجيش المملوكي بالثبات

(١) انظر : د . ابراهيم حسن سعيد : الهجرة في عصر سلاطين الماليك

ص ٥ دار المعارف ١٩٨٣ .

(٢) سورة الانفال اية رقم ٦٠ .

بالجيش أو الجيوش المتصورة فكان له دور بارز في جهادهم المتواصل وكانت حياتهم سلسلة من حلقات الجهاد المتواصلة فكانوا بحق كما قال عنهم المؤرخون وإنهم كانوا دأوية الإسلام^(١). وإلى جانب الأخطار الخارجية كانت هناك أخطار داخلية. كانت توصف بالدولة الناشئة وهى فى الصراع على السلطة بين المالك والأيوية الذى جعل الملك الناصر يمدى التعاون مع التتار.

وفى ذلك بسلا* عظيم. فكان لا بد لهم من توحيد الجبهة الإسلامية حتى يتسنى لهم مواجهة الأعداء ومن الله على مصر بقائد عظيم هو السلطان سيف الدين قطز الذى استطاع أن يوحد صفوف الجنود ويخمد المنازعات عن السلطة وبذلك أصبحت الجبهة الإسلامية فى استعداد لمواجهة الأعداء.

أولاً : الجهاد ضد التتار :-

تعرضت الأمة الإسلامية لهجمات شرسة من قبل التتار وعن خطورة ذلك المد ويقول ابن الأثير* لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها. فأنا أقدم رجلاً وأخير أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب معنى الإسلام والمسلمين ومن الذى يهـون عليه ذكر ذلك ؟ فإياي أتى لم تلدنى ، وإياي متى قبل حدوثها وكتبت نسيّاً نسيّاً . إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنشأ متوقفاً رأيت أن ترك ذلك لا يجرى نفعاً فنقول هذا يتضمن ذكر الحادثة

(١) انظر د. حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية فى عصر الممـلوكـة

العظمى والمصيبة الكبرى التي عفت الأيام واليالي من مثلها . عت الخلائق وخاصة المسلمين فلو قال قائل : " أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يتلوا بمثلهم لكان عادقا . كآن التواريخ لم تضمن ما يقاربها وما يداينها " (١) حيث دخلت جيوشهم بغداد فتفتك بأهلها دون التفرقة بين عبي أو امرأة أو شيخ ، أما من بقي من القتل فقد أسسر حتى بلغ عدد القتلى حوالي ثمان مائة ألف قتيل (٢) . وسقطت الخلافة العباسية بقتل الخليفة العباسي على أيدي المغول .

بداية الصراع بين المماليك والمغول :-

كان العدو والمغولي (٣) له أطماع توسعية في العالم بصفة عامة والعالم الإسلامي بصفة خاصة فبعد استيلائه على بغداد سعى للاستيلاء على مصر والشام . فأرسل هو لأكو إلى الملك المظفر قطز خطايا مضمونة " والنسي المظفر قطز الذي هسو من حبس الترك الذين هربوا من سيوفهم . فأنشأ جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه فسلموا إلينا تسلموا من قبل أن تندموا

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٩ ص ٣٢٦ دار الفكر بيروت .

(٢) أنظر د . حامد زيدان صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في طلسل دولة المماليك ص ١٤ .

(٣) المغولي : أو المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حول بحيرة بتيغيسال (أوبكال) في جنوب سيبيريا وتاريخهم القديم سقيم . لانهم لستم يظهروا الا بظهور جنكيز كان في أوائل القرن السابع الهجري " جسر زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج٤ ص ١٣٨ .

وقد سمعتم بأننا أضربنا البلاء وقتلنا العباد . فلکم منا الحرب ولنا منکم الطلب . فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لأمرنا طعتم فلکم مالنا ولنا مالکم . وإن خالفتم هلکم فلا تهلكوا أنفسکم با أيديکم . فقد أئذر من أئذر فعجلوا بالجواب قبل أن تضرب الحرب بنارها . وترمیکم بشرورها فلا یبقی لنا مقصد سواکم .^(١) والسلام * وكان الکتاب بصحبة أربعة رسل فلما سلم المطفر قطر الکتاب تغير تغيرات شديدة وأمر بتوسيط الرسل الأربعة فوسطوا وأمر السلطان بجمع الأمراء وقادة الجيش وحشهم على القتال ورغهم فیہ .

وذكرهم بما لحق بالأقالیم الإسلامية التي اجتاحتها المغول من القتل والنهب والدما* والحريق^(٢) . ودعاهم إلى نصرة الإسلام والجهاد فی سبیل الله دفاعا عن المسلمین وحرمتهم وخوفهم من عقاب الله وإن هم ولوا الأديبار أمام عدوهم . فتأثروا بقوله وجدوا بالبكا* وتحالفوا على الإجتهاد فی قتال التتار .

(١) انظر القرمانی : تاریخ الاول واثار الاول ص ١٩٨ عالم الكتب بیروت
(٢) القوسیط : هو أن یضرب الشخص بالسيف ضربة لقطعة نصفین ، وكان هذا النوع من الاعدام شائعا فی العصور الوسطی * مفترج الکـروب ج ٢ ص ٣٩٢ .
(٣) المقدیزی : السلوك ج ١ ص ٣٠ القاهرة ١٩٢٠ .

معركة عين جالوت :-

شهدت (عين جالوت) التي تقع بين بيسان ونابلس معركة من أخطر معارك التاريخ حيث التقى المسلمون بقيادة السلطان قطز مع التتار في ١٥ رمضان سنة ست مائة وثمان وخمسين هجرية الموافق سنة ألف ومائتين وستين ميلادية وانتصر فيها المسلمون على أعدائهم ومزقوا شمل المغول كل ممزق وكان المغول خصما عنيدا قويا حتى قيل أن كتبغا قائد الجيش المغولي تحول أثناء المعركة إلى قطعة من اللحم بسبب القصب . وقصد أظهر المسلمون شجاعة متقطعة النظير . فكان ذلك إلتصار لثمة جهنم مشتركة من القادة والأمرأ والجنود .

ولعل خير دليل على ذلك حرص السلاطين على الجهاد في سبيل الله بأنفسهم فيذكر العيني عن السلطان سيف الدين قطز في موقعه عين جالوت أنه لما كان في المعركة قتل جواده ولم يجد أعداء في الساعة الراهنة من الوشاقية فترجل وبقي كذلك واقفا على الأرض ، ثابتا في محل المعركة وموضع السلطنة من القلب ، فلما رأى بعض الأمراء ترجل عن فرسه وطلب من السلطان الركوب ، فاستع السلطان ورد قائلا * ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ، ولم يزل كذلك حتى جاءت الوشاقية فركب ، فسلام بعض الأمراء وقال يا قطز لما لم تركب فرس فلان ؟ فلو كان رأيك ببعض الأمراء لقتلك . وهلك الإسلام بسببك فقال أما أنا فكنت أذهب إلى الجنة

(١) الوشاقية : الاوشقية او الاوحقية جمع أوشاق . أو جاق : فرقة من خدم السلطان عليها ركوب الخيل والتسير والرياق صبحى الاعشى ج ٥ ص ٤٥٤ *

وأما الإسلام فله رب لا يضعه قد قتل فلان وقلان وعدد خلقا كثيرا — من الملوك فلن يضع الله الإسلام . (١)

نتائج معركة عين جالوت :-

- ١ - تيد وأهمية هذه المعركة على وجه الخصوص ، إذا ما تصورنا أنها جاءت بنتيجة عكسية وانتصر فيها المغول ، إذ لسقط معقل للإسلام في فلسطين ومصر (٢) ، خصوصا وأن قوى الشر الصليبية كانت تقف بالمرصاد للمسلمين وأيدت التحالف مع المغول في سبيل القضاء على الإسلام والمسلمين .
- ٢ - قضى هذا الانتصار على الفكرة التي كانت سائدة عند الدولة المسيحية بأن الجيش المغولي جيش لا يقهر .
- ٣ - حفظت مصر وأثارها من الخراب الذي كان طبيعة النصر المغولي .
- ٤ - أعادت الوحدة بين مصر والشام (٣) تحت حكم المماليك . وهى الوحدة التي زاق مرارها الصليبيون .
- ٥ - إعادة الثقة إلى نفوس المسلمين الذين أصبحوا يشكون في وجود قوة على الأرض تستطيع مواجهة المغول . ولكن ماذا كان موقف السلطان سيف الدين قطز وهو منتصر على أقوى جيش في العالم .

(١) أنظر العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١ ص ٢٥٩ .

تحقيق محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٩٨٩ .

(٢) انظر / د . فؤاد عبد المعطى : المغولي في التاريخ من ضحكزكان

الى هولكوص ٢٠٩ القاهرة ١٩٦٠ .

(٣) أنظر / د . أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٥ ص ٢٥٠ .

مكتبة النهضة ص ١٩٩٠ .

هل نسب النصر إلى نفسه أو سعى في الأرض قصاد أو تغطرسا . كلا
إنما نجد بعد أن أصبحت هزيمة المغول أمرا مؤكدا قد نزل فر سبكت
ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين ^(١) شكرا لله تعالى على ما فعله
تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) ^(٢)

مسيرة الجهاد ضد المغول بعد عين جالوت :-

واصل السلطان الظاهر بيبرس راية الجهاد بعد السلطان قطش
وكانت سياسته مع العدو واضحة، فقد وصله رسل أبا معهم مكاتبات
ومشاققات ، فمن جملة المشاققات أنت ملوك بعث بسيواس فكيف يسمع
لك أن تحالف ملوك الأرض وأعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت
إلى الأرض ما تخلصت منا فأعمل لنفسك على وصالحه السلطان أبا قلم
يلتفت إلى ذلك ولا عده شيئا . بل أجاب عنه معلنا سياسته مع ذلك العدو
بكلمة أضافت سجل التاريخ وظلت شاهدة على عظمة سلاطين المماليك في
الدفاع عن البلاد الإسلامية . فقال لرسله " أعلموه أنني من ورائه بالمطالبة
ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة ،
وسائر أقطار الأرض ^(٣) وترجم بيبرس ذلك الكلام إلى واقع ملموس . حيث تعطلت
في عهده أسطورة الشبح المغولي وأخذ الإسلام ينتشر بين هؤلاء الغزاة

(١) انظر / د . حامد غنيم أبو سعيد الجبهة الإسلامية في عصر الحروب

الصلبيين ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٢) سورة إبراهيم آية (٧) .

(٣) انظر / من كنز اليداية والنهاية ج ٢ ص ١٣٢ دار الفكر العربي .

وبالتالي استعادت الجبهة الإسلامية ثقتها في قدرتها على مواجهة التحديات بل وقرض إرادتها ^(١) على العدو .

موقعة حمص :-

وفي أثناء عهد السلطان الملك المنصور قلاوون أخذت جيوش التتار تحتاج الحدود السورية ثانية مرتكبين نفس القطائع التي ارتكبوها منذ عشرين عاما . وكان مما شجعهم على ذلك الخلاف الذي ساد بين صفوف الأمراء المماليك . وطبقا لحسابات العدو والمغولي القاصرة التي لا تدرك إلا المقاييس المادية اعتقدوا أن الصراع على السلطة بين سنقر الأشقر الذي خرج على طاعة الملك المنصور قلاوون ونادى بنفسه سلطانا على دمشق . سيتفق معه على قتال الجيش المصري ولكن أمراء المماليك خاطبوه بروح الإسلام وقالوا له إن العدو داهنا وباسينبه إلا الخلاف الذي بيننا وما ينبغي هلاك الإسلام فتأثر وتراجع عن موقفه ومنع مجده من محاربة المصريين وقد ارتكب جيوش المغول جرائم لا تحصى فأُحرقوا ما يجلب من جوامع ومدارس فتملك أهل دمشق الهلع والرعب وهاجر منهم خلق كثير إلى مصر والتقت جيوش المغول بجيوش السلطان قلاوون الذي كانت تتكون من جنود مصر والشام وفريق كثير من الأكراد والتركمان حيث تودى في الجيش الأقوى للجهاد قلبي النداء جنود كثيرة وحضر إلى ميادين القتال المسلمون من كل أرجاء الأرض . وكان اللقاء بالقرب من

(٢) أنظر / د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر

الحروب الصليبية ج ١٣ ص ١٧١ .

حمص وكانت معركة شديدة وقاتل المماليك قتالاً شرفاً وحملوا على جيش المغول حملة صادقة انتهت بهزيمتهم هزيمة ساحقة . وقتل كثير منهم وكانت هزيمة المغول عند حمص لا تقل في أهميتها عن هزيمة عين جالوت سيما أن المغول كانوا في ذلك الوقت يرسلون البايبا وسلوك أوريسا يطلبون التعجيل للإرسال حملة صليبية تقضي على سلطنة مصر . ولتفادي هذه المؤامرة أبرم قلاوون اتفاقاً دافعياً مع أمراء كشتالسة وصقلية^(١) فهذه السياسة الحكيمة إلى جانب بطولتهم الرائعة في حمص استطاعوا كسر شوكة المغول .

وعاد المغول يهددون الدولة المملوكية من جديد في عهد برقوق^(٢) . فكان رد السلطان برقوق رداً غنياً وذلك يتضح لنا من رده على رسالة وصلت من ملك التتار وهذه مقتطفات من نص الخطاب بإنشاء ابن العمري ونشخته بعد البعدين والإصدار " نحن خيولنا برقية وسها بنا يمانية وسيوفنا شديدة المضارب ذكرها في البشارق والمغارب . إن قتلناكم

(١) انظر / د . محمد رفعت ومحمد حسونه معالم تاريخ العصور الوسطى المطبعة الامين بيولاقي .

(٢) برقوق : بن أبيخ العثماني الحيركسي اشغرة الاتاكي بليغا العمري ومات بليغا وهو من صفار ممالكة وانما سعى برقوق ليجووظ عينية وانتقلت به الاحوال أن صار أمير مائه مقدم وكان اتاكا تلك الصالح وليس للصالح سوى الاسم لصفر سنن وخلع الصالح وتولى هــ مكانه في التاسع عشر من رمضان سن ٧٨٤ هـ " القرطبي اخبار الاول وآثار الاول ص ٣٠٨ .

فَنَعْمَةُ الْبِضَاعَةِ وَإِنْ قَتَلْنَا فَبَيْنَا. وَبَيْنَ الْجَنَّةِ سَاعَةٌ (١) . وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (٢) . وَفِي ذَلِكَ

تَصْمِيمٌ عَلَى مُوَاصَلَةِ سِيرَةِ الْجِهَادِ حَتَّى النِّصْرَةِ وَالشَّهَادَةِ .

ثانياً : الجهاد ضد الصليبيين :-

سنتحدث فيما بعد حديثاً مفصلاً عن الجهاد المالكي ضد الصليبيين ونود أن نشير هنا في تلك الكلمة الموجزة أن انتصار الماليك في موقعة عين جالوت حقق لدولة سلاطين الماليك الناشئة مكانة لا يستهان بها في نفوس المعاصرين ، سادهم نفوذها (٣) في بلاد الشام وألقى على أهلها مهمة إتمام ما قام به صلاح الدين الأيوبي . ونجح سلاطين الماليك في استرداد ما اغتصبه الصليبيون وقد كان في وسع الماليك أن يعجلوا بطرد الصليبيين ، ولكن غاملاً مهما أتاح لهم البقاء في الشام حوالى أربعين سنة بعد سقوط بيت المقدس (٤) وذلك بسبب زحف العدو المغولي على العالم الإسلامي . فبعد هزيمة المغول في عين جالوت تحول الماليك إلى الصليبيين وأهم سلاطين الماليك الذين كان لهم دور بارز في الجهاد ضد الصليبيين السلطان الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل بن قلاوون

(١) المرجع السابق القرمانسى ص ٣٠٨ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩ .

(٣) انظر / على سيد على : القدس في العصر السلوكي ص ١٥٨ دار الفكر للدراسات والنشر .

(٤) انظر / احمد شلقى : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٨٥ ، مكتبة النهضة ص ١٩٩٠ .

حيث استطاعوا أن يجلبوا الصليبيين من بلاد الشام .

ثالثا : جهاد الماليك مع البقايا الصليبية في الشرق :-

الماليك وأرمينيا الصغرى :-

كان العداء بين الماليك والأرمن في حقيقة أمره سلسلة من العداوات بين القوى الإسلامية والمسيحية زمن الحروب الصليبية نفسها . وطلب الظاهر بيمس أن يكون نهر جيحون حدا بين المسلمين والأرمن وأن يسلم كـل ما هو جنوبي نهر جيحون من الحصون والبلاد . فأجاب الأرمن وتسلم المسلمون جميع البلاد التي جنوبي نهر جيحون والمذكور وضها حمص وتل حمدون وقويدى ومرعشى وغيرها . ولكن آلت أمور هذه البلاد إلى الأرمن عند دخول (قادر) ملك التتار (١) .

فقاد حركة الجهاد السلطان المنصور قلاوون الذي هاجم إنياس في سن ١٢٨٣ وأنزل الهزيمة بالأرمن عقب الهزائم المتلاحقة التي نزلت بهم على أيدي الأرمن وأبرمت معاهدة ودفع للأرمن جزية سنوية فحسبوا أن قطعوا تلك الجزية في عهد الأشرف خليل بطل عكا حتى يادربار إرسال رسالة إلى هيثم الثاني ملك أرمينيا يخبره بفتح عكا .

وطلب منه أن يعتبر بما جل بعكا وإلا ندم حيث لا ينفع الندم (٢) . وعزم

(١) انظر / بن الغدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٧ .

(٢) انظر / سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ص ٢٦٢

مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى ج ٢ ص ٢٦٢

مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٦ ص ٣٠

على استعادة الأراضي التي نزلوا عنها للمماليك . وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون أرسل حملة س ١٢٨٦ م وظلت هذه الحملة تعمل في الأراضي الأرمنية حتى وافق الأرمن على التنازل عن جزر كبير ومع ذلك لم تنقطع غزوات المغول في أرمينيا الصغرى بقية القرن الرابع عشر حتى استطاع الأشرف شعبان أن يقضى قضاء تاما على دولة أرمينيا^(١) وبعد القضاء على أرمينيا أصبحت قبرص أهم المعاقل الصليبية وأقواها . حيث أصبحت ملجأ للشركاء الفارين الصليبيين كما أصبحت هذه الجزيرة ملجأ للقراصنة ولأعداء الإسلام وهاجمت سواحل مصر فزحف جند السلطان (بارساي) وهاجموها واستولوا عليها س ٨٣٠ هـ - س ١٤٢٦ م وقبضت الجزيرة تحت حكم مصر تدفع الجزية^(٢) وحاول أهل جزير (بودس) مناصرة أهل قبرص ولكن تصدى لهم السلطان حقق وهاجمها ثلاث مرات ما أسكنها وذلك نجد أم المماليك كان بمثابة الدماء الجديدة التي تتطلبها الجبهة الإسلامية في ذلك العصر . فكانوا مدافعين عن البلاد الإسلامية دفاعا عظيما حيث اشترك السلاطين في هذه المعارك وجاهدوا جنيا إلى جنب مع جنود فكانوا قدوة صالحا للامة لما جعلهم يشاركون في تلك المعارك تطوعا وجهادا في سبيل الله .

(١) المراجع السابق .

(٢) انظر د / أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٦٠

مكتبة النهضة س ١٩٩٠ .

الفصل الثالث

الفتوحات الإسلامية في العصر المملوكي
وأثرها في خدمة الدعوة الإسلامية

* الفصل الثالث *

الفتوحات الإسلامية في العصر المملوكي وأثرها في خدمة

الدعوة الإسلامية

تتصف دولة سلاطين المماليك في مصر والشام بأنها دولة حربية نشأت وترعرعت وليدة الحروب الكثيرة التي هددت منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى واستخدمت هذه الدولة بقاعها ونظمها من ذلك الجهاد المسلح ضد الأعداء^(١). فقد تعرضت الأمة الإسلامية في ذلك الوقت لأخطار عديدة أهمها الخطر المغولي وقد سبق الحديث عنه في فصل لاحق والخطر الصليبي . حيث استولى الصليبيون على بلاد الشام وثغور مياط وأقاموا مستعمرات لهم في قلب الدولة الإسلامية . وقد انشغل المماليك في الدفاع عن البلاد الإسلامية في بادئ عهدهم ضد المغول وما أن انكسرت شوكة المغول حتى تحولت راية الجهاد إلى العدو الصليبي وسنتناول بالدراسة أهم الفتوحات الإسلامية في عصر سلاطين المماليك وأثرها في الدعوة الإسلامية . فقد كانت حياة سلاطين المماليك مسخرة لخدمة الدعوة الإسلامية خلال حماية الدولة الإسلامية واستردادها ما اغتصبه الأعداء :

أولا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس :-

الملك الظاهر بيبرس البندقدارى كان ملكا جليلا عظيما مشهورا بالشجاعة والإقدام^(٢) فتح قلعة البصرة، الكرك والشوبك وقيسارية وقلعة الهيوى . وفسد وقلعة بانياس ويافا والشفيق ومدينة أنطاكية وسائر حصون الإسماعيلية وحصن

(١) انظر د / محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ج ٤ ص ٥ القاهرة

١٩٦٠ .

(٢) القسريانى : تاريخ الدول وانا الاول ص ١٩٩ .

الأكراد وحسن عكار وكنبول والمضيصة وتدل كثرة الفتوحات في عهد الظاهر بيبرس على علو خلقه وحبه للإسلام وأهله . فقد قال عنه صاحب كنز الدرر :
 " إن بيبرس كان ملكا هاما شجاعا مقداما لا يرهب الموت كثير الحيل حسن السياسة ، جميل التدبير . ميمون الحروب مؤيد العزم وقال عنه أحد المؤرخين^(١)
 " إن عهد بيبرس كان كمعهد الرشيد وصلاح الدين أحد عصور الإسلام الذهبية " .
 وكان الظاهر بيبرس حريصا على نشر الدعوة الإسلامية من خلال فتوحاته فشيّد المساجد وأقام بها الدعاة . وستورد أهم الفتوحات في عهده .

١ - فتح قيسارية الشام :

نازلها الملك الظاهر بيبرس وحاصرها لمدة ستة أيام وفتحها في منتصف شهر جمادى الأولى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م واستولى عليها المسلمون وهرب الصليبيون وأسلموا القلعة^(٢) بما فيها وهي أول فتوح الملك الظاهر رحمه الله . وكان فتح (قيسارية) مملا على جانب كبير من الأهمية . فقد أخلى الفرنجيسة عن حصن منيع على الساحل الجنوبي لبلاد الشام وكان يهدد المواضع الإسلامية بين مصر والشام وبذلك استراح المسلمون من تهديد الفرنجيسة لجاراتهم .

(١) انظر ابن أبيك : كنز الدرر ج ٨ ص ٢١٤ .

(٢) انظر / العسبني : عقد الجمان ج ١ ص ٣٦٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٨٩ .

(٣) انظر / طه التلجي : ملكة صفد في عهد الماليك ص ٤٦ .

٢ - فتح أرسوف :^(١)

نزل السلطان على أرسوف في مستهل جمادى الآخرة من نفس السنة واشتد هجوم المعسكر بالسهام والمجانيق وضيقوا عليهم . فما أحسن الفرنج إلا أن خالطهم المسلمون . وكان فتحا مباركا فقد حضر في هذا الفتح جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء . ولم يعد فيها خمر ولا شئ من الفواحش فكانت النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال^(٢) وفي ذلك نفع عظيم للدعوة الإسلامية . حيث إن الدعوة إلى الله بالقُدوة الحسنة أعظم شأنًا فهي نفس المدعوين من الكلمة . واشترك القائد بيبرس في هذا العمل بنفسه فكتب سجل التاريخ لبيبرس أنه في أثناء الحصار الذي فرضه على أرسوف الصليبية في سنة ٦٢٣ هـ . كان يقتل الأتجار بنفسه ويمشي بمفرده في يده ترس تارة في السرب وتارة في الأبواب التي تفتح ليرى العدو من فوق الساتر .^(٣)

٣ - فتح صفد :^(٤)

نزل الملك الظاهر بيبرس بجيشه على صفد في شعبان سنة ثلاث وستين

- (١) أرسوف بالفتح ثم السكون ، وضم السين المهملة وسكون الواو . والفاء مد ينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا وكان بها خلعة منقن المرايطين منهم أبو يحيى ذكريا بن نافع الأرسوفي وغيره وهي نفسى الاقليم الثالث (يا قوت الحموى) ج ١ ص ١٥١ : ١٥٢ .
- (٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٩ القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- (٣) انظر / حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٧٢ .
- (٤) صفد : صفد بالتحريك ، والصفد : العطاء وكذلك الوفاق وهي من حبال لبنان (يا قوت الحموى) : معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٢ .

وستأفة هجرية ونأيقها بالزحف وآلات الحصار فسلعوا البأشورة^(١) واستولى عليها
وفتحها في التاسع عشر من شعبان سنة ٦٦٣ هـ وعمر فيها جامعاً^(٢) وكان سلاطين
المالكة يصطحبون مع الجنود الصالحين والعلماء وحضر قاضي قضاة الحنابلة
بدمشق^(٣) ذلك الفتح . وسادت الروح الإسلامية واشترك العامة تطوعاً فسي
سبل الله . وأحسنوا القتال ما سهل فتحها .

تعمير صدد :

تعرضت صدد إلى أضرار جسيمة خلال فترة الحصار التي انتهت بعودتها
للحاضرة الإسلامية . فنظر الظاهر بن بدران إلى مستقبل تلك القلعة في رحلة
جهاده ضد الصليبيين فكان موقعها الحصين دافعا له ليجعل منها قاعدة
حصينة في المنطقة تشد أزره في صراعه مع الفرنجة^(٤) . ومركزاً تشن منه الهجمات
على البلاد الخاضعة للصليبيين . ووصل السلطان لتعمير صدد في أواخر
رجب سنة ٦٥٦ هـ . ونور ووله قام بتقسيم عمارتها على الأمرأ وأخذ نصيباً
واغراً لنفسه ولعاليكه . وما أن فرغوا من العمارة حتى أمر بحفر خندق مسن

(١) البأشورة : هنا سد من التراب لمنع وصول الخيالة والرحالة والسهمام

إلى مواضع المخاربين مع تجمع على بواشير الملوك : ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) انظر / العيني : عقد الجمان ج ١ ص ٢٢٢ الهيئة النصرية العامة
للكتاب .

(٣) انظر / د حامد غنيم : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج

٣ ص ٢٢٥ .

(٤) انظر : طه التلجي الطراونه . مملكة صدد في عهد المالكة ص ٥٢

حولها . شارك السلطان العمل فيه أيضا ويذكر المقرئ لنا دور (بيبرس) في نشر الدعوة من خلال فتحه لصفد . فقد كتب على القلعة بعد فتحها مصورا إنجازاته في تلك القلعة * ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون^(١) * أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون^(٢) .

وأمر بتجديد هذه القلعة وتحسينها وتكملة عمارتها وتحسينها وخلصها من أسر الفرنج الملاحين ، وردّها إلى أيدي المسلمين ، ونقلها من أخوة الكفر إلى أخوة المؤمنين وأعانها إلى الإيمان . كما بدأ بها أول مرة وجعلها للكفار خسارة وحسرة واجتهد وجاهد حتى بدل الكفر بالإيمان والناقوس بالآذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها^(٣) وفي ذلك وصف جامع الدور بيبرس في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال فتوحاته .

٤ - حملات تاديبية :

انطلاقا من قول الله تعالى * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(٤) * توجه الملك الظاهر بيبرس من دمشق حيث التقى بجنود المعاندين من غزوة سيس . لما نزل على * قارا * بين دمشق وحمص . أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة جزا * وفاقا . واقتصاصا منهم

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

(٢) سورة المجادلة من الآية رقم ٢٢ .

(٣) انظر المقرئ : السلوك ج ١ ص ٦٣ القاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٤) سورة البقرة آية ١٧٩ .

لأنهم كانوا نصارى يسفون في الأرض فساداً ويسرقون الصبية المسلمين ويبيعونهم للفرنج ^(١) فكانت الحملة التأديبية إرهاباً وردعاً للمعد ووتعظيماً لحرمة الدم المسلم.

٥ - فتح إنطاكية :

يروى المؤرخون أن بيزنس هاجم إنطاكية ^(٢) بثلاث قوات إحداها بقيادة الأمير بدر الدين الخازندار . اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين إنطاكية والبحر والثانية بقيادة الأمير عز الدين بيفان وسدت الممرات بين قليبية والشام . لمنع وصول إمدادات من أرمينيا الصغرى في حين أخذت القوة الرئيسية بقيادة بيزنس نفسه تجاه المدينة حيث التجأ إلى الخديعة ليعسد الأسطول الإنطاكي عن ميدان المعركة فهاجم طرابلس أولاً فأسرع إلى نجدها بوحمسد الثالث بأسطوله وفي هذه اللحظة رحل بيزنس عن طرابلس . وتكمن بذلك من الاستيلاء على إنطاكية ٦٦٦ هـ / ١٢٩٨ م . فلم يكن يجازف سلاطين المماليك بقواتهم . وإنما برعوا في وضع الخطط العسكرية . ونجحوا في ذلك نجاحاً بارعاً . إلى جانب روح الجهاد التي كانت القوة الروحية التي جعلتهم يحققون ذلك النجاح في فتوحاتهم .

-
- (١) انظر / ابن الفداء : المختصر البشري ج ٤ ص ٤ .
 (٢) إنطاكية : بالفتح ثم بالسكون والياء مخففة بلد عظيم ذو سور عظيم وشكل البلد تنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مسج الجبل داخل السور قلعة مبنية (معجم البلدان ج ١ ص ٢٦٧) .
 (٣) انظر / د علي ابراهيم حسن : البحرية في عصر سلاطين المماليك ص ٢٥٣ النهضة المصرية ١٩٦٧ .

٦ - فتح حصن الأكراد وحصن عكار والقرين :

توجه الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام . ونازل حصن الأكراد في التاسع من شعبان سنة ٦٦٩ هـ . وجند في حصاره واشتد القتال عليه وملكه بالأمان في شعبان من نفس السنة . ثم رحل إلى حصن عكار ونازله في السابع عشر من رمضان من هذه السنة . وجد في قتاله وملكه بالأمان في رمضان المذكور ^(١) وقيل في فتح عكار .

يا ملك الأرض بشر

أفقد نلت الإرادة

أن عكسنا رأي قينا

هي عكسنا وزينا

وكان هذا الحصن شديد الضرر على المسلمين ^(٢) فأراحهم الله بفتحه وفيه تسلم قلعة القليعة وبلادها من الإسماعيلية . واستولى على حصن القرين وتسلم نواب الملك الظاهر بيبرس ما تأخر من حصون الإسماعيلية ^(٣) . وبذلك استطاع الظاهر أن يقضي على فرقة الإسماعيلية التي كانت بلاء على الإسلام والمسلمين . فقد كانت حياته رحمه الله سلسلة من الجهاد المتواصل فقد ذكر أنه فتح في عهده أربعة حصونا كانت مع الفرنج ^(٤) .

(١) انظر ابن الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٤ .

(٢) انظر العيسوي عقد الجمان ج ٢ ص ٧٧ الهيئة المصرية العامة

سنة ١٩٨٩ .

(٣) انظر المرجع السابق .

(٤) انظر الذهبي : شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٥٠ .

ثانيا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد السلطان قلاوون :

الملك السلطان سيف الدين قلاوون كان ملكا عظيما والخير ما شهد بسنة
الأعداء * . حيث يقول السيد ولهم موبى عن السلطان قلاوون أنه كان * ملكا
عاقلا ، جوادا محبا للخير وقد حمد له مؤرخونوا عصره لينه وحلمه وعد لسه
والحق أنه جدير بهذا الحمد * (١)
وأهم فتوحاته : فتح المرقب وفتح طرابلس .

١ - فتح المرقب :

خرج السلطان الملك المنصور من دمشق بالعساكر المصرية والشامية
متجها إلى المرقب (٢) ونازلها في أوائل ربيع الأول ٦٨٤ هـ وهو حصن في غاية
العلو والحصانة . ولشدة حصانته لم يطعم أحد من الملوك الأوائل في فتحه (٣)
ويروى لنا الملك المؤيد في تاريخه هذا الحدث فيقول * " انى حصرت حصار
الحصن المذكور وعمرى إذ ذاك نحو اثنتى عشرة سنة وهو أول قتال رأيته وكنت
مع والذى * . وطلب أهل الحصن الأمان فأجابهم السلطان وتسلمه في الساعة
الثامنة من يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول من سنة أربع وثمانين وستائة (٤)
وأمر بالإبقاء عليه لحصانته وسناعته وريت فيه حامية قوية من المالك * واستسرد
قلاوون حصن مرقية من الصليبيين * (٥)

(١) انظر / ولهم موبى : تاريخ دولة المماليك البحرية في مصر ص ٦٠ : ٦١
المعارف - القاهرة .

(٢) المرقب : بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة
بانياس .

(٣) العيسى : عقد الجمان ج ٢ ص ٣٣٨ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٤) ابن الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٤١ .

(٥) انظر / د السيد عبد العزيز سالم . طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي

٢ - فتوح طرابلس :

يحاول الظاهر بيبرس مهاجمة طرابلس سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م ويمسك
أن استولى على حصن الأكراد قصد السلطان بيبرس طرابلس وأحاطوا بطرابلس
إحاطة البهلات بالأقمار . وعقد هدنة مع حكام طرابلس لمدة عشر سنين
إلا أن السلطان قلاوون شرع في فتح طرابلس بسبب نقض حكام طرابلس الهدنة
التي كانت مبرمة بينهم وبين السلطان بيبرس وذلك بأنهم اعتدوا على التجسس
المسلمين رغم تعهدهم بالألا يتعرضوا له ولا يقطعوا الطريق على سافس .
فصار قلاوون إلى طرابلس على رأس قوات من الفرسان والمشاة^(١) فوصل إليها يوم
الجمعة في سبتهل ربيع الأول سنة ٦٨٨ هـ وحاصرها حصاراً شديداً فلما كان يوم
الثلاثاء الرابع من جمادى الآخرة فتحت طرابلس بالقوة وقد كانت طرابلس في أيدي
الفرنج من سنة ثلاث وخمسة^(٢) هجرية إلى أن فتحت في سنة ثمان وثلاثمائة
وسنة هجرية . وأحدث سقوط طرابلس في أيدي المسلمين دواهاً عظيماً . خففت
له قلوبهم في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وكتب المشائرو إلى الأتقي بهذا
النصر المبين^(٣) . وعزم الملك قلاوون على فتح عكا حيث جهز جيشه ولكن العنينة

(١) المعينى : عقد الجمان ج ٢ ص ٣٣٨ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٢) انظر / د . علي إبراهيم حسن : تاريخ الممالك البحرية ص ٢٥٣ -

الهيئة المصرية سنة ١٩٦٧ .

(٣) انظر / ابن الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٣ .

(٤) انظر / د . السيد عبد العزيز سالم : طرابلس في الشام في التاريخ

الإسلامي ص ٢٩٤ .

عاجلته في الطريق . فأكمل المسيرة بعده ابنه الأشرف خليل .

ثالث : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الأشرف خليل بن قلاوون :

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالح النجمي الألفي . قتل في الثالث عشر من محرم ٦٩٣ هـ وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأياما وكان شجاعا عالى البهمة . فتحت في عهده عكا والسواحل وقلمة الروم وسهينسى ومرعش وغير ذلك ^(١) .

١ - فتح عكا :

في سنة ٨٦٦ هـ - سقط الوجود الصليبي في إنطاكية وفي سنة ٦٨٨ هـ سقطت طرابلس ومن ثم أصبح الوجود الصليبي في عكا ، أو في الجنوب هــو الغاية التي عدت كل جهود الجبهة الإسلامية موجهة إليه . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى . فقد سجل التاريخ عن صليبي عكا . أنهم في شعبان ٦٨٩ هـ ثاروا على التجار المسلمين وقتلوه ^(٢) . وعندما وصلت هذه الأنباء إلى السلطان قلاوون وطلب من الصليبيين تسليم المجرمين إليه فورا فعقد الصليبيون مجلسا واتخذوا قرارا بتسليم المجرمين إلى قلاوون ليسكن غضبه ولكن ذلك القسرسار تعارض مع الرأي العام المسيحي الذي رفض ذلك القرار بشدة وإذا صغسب الرأي العام المسيحي ^(٣) قدم حكام عكا تبريرات واهية محتواها أن العدوان آتى

(١) انظر / العيني : عقد الجمان ج ٣ ص ٢٠٧ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٢) انظر / د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج ٣ ص

(٣) انظر د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامى في العصور الوسطى ص ٩٢٢ - دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

به صليبيون أجانب . وأن الحكومة غير مسئولة عن ذلك الحادث ولكن هذه الأعداء الواهية لم تكن كافية لتهدئة غضب السلطان قلاوون الذي جهز الجيش لفتح عكا ولكن المتية عاجلته في الطريق . وهو بذلك يذكرنا بالخليفة المعتصم الذي جهز جيشا من أجل امرأة سلمة استغاثت به . وأتينا في عصرنا الحاضر لقي أشد الحاجة إلى حاكم مثل هؤلاء الحكام . حيث دماء المسلمين تنتهك في كل مكان ولا يحرك ذلك هاجنا لدى حكامنا سوى التثديد والاستتكار .

وأخذ السلطان الأشرف خليل على عاتقه مهمة والده في القضاء على الصليبيين فجهز الجيش ونودي في دمشق للجهاد في سبيل الله لفتح عكا فخرج الجميع من العامة والفقهاء والمدرسين والصالحين^(١) . ملين نداء الجهاد ونزل السلطان بجيشه عند عكا فوجدها قد حصنت بسائر العدد والآلات وكانت الفرنج قد استتجدوا بأهل قبرص وغيرها من البلاد وأرسلوا إلى ملوك الإفرنج مع الرهبان والقساوسة مبينين لهم أنه لم يبق حصن من حصون الفرنج يسأوون إليه في جميع السواحل غير هذا الحصن وأنه متى أخذ لا يبقى لسائر الإفرنج مكان يذكرون فيه فأجابوا على طلبهم بتزويدهم بجيش قوى ودارت بينهم وبين المسلمين مناوشات قرأوا من المسلمين ما ليس بحسبانهم فامتنعوا عن القتال وصاروا يذافعون دون أن يهجموا فحاصرها الأشرف خليل وشدت الحصار وقاتل من بها مدة أربعين يوما حتى فتحها عنوة^(٢) . وقيل قتل ما يزيد

(١) انظر / ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٠ دار الفكر

العرسي .

(٢) البغدادى : الحوادث الجامعة ص ٤٧٠ - المكتبة العربية .

على عشرة آلاف نفس وتسلمها المسلمون بعد أن ظلت في أيدي الصليبيين مائة عام . وكانت معركة عكا هي الحاسمة في فصل الصراع بين الصليبيين والجيبة الإسلامية .

٢ - نهاية الصليبيين بالشام :

* لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج ، الذين بساحل الشام^(١) . فاحتل الماليك مدينة هصور دون مقاومة بعد أن تركها نائب الملك هنري الثاني وفر إلى قبرص .

أما صيدا فقد فر منها أهلها عند اقتراب الأمير الشجاع ، فاستولوا عليها الماليك ودبروا قلعته في سنة ٧٠٢ هـ - سنة ١٢٩١ م . وكذلك احتل الماليك مدينة حيفا وهدمها وبذلك لم يبق للصليبيين بالشام سوى موضعين هما انطرطوس وعسليت . وكان هذان الموضوعان تابعين للبرابرة واستلمت الأولى في ثلاثة أغسطس والثانية في أربعة عشر أغسطس سنة ١٢٩١ م سنة ٧٠٢ هـ . وبذلك تكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام وهكذا أزال دولة الصليبيين بالشام وتخلص المسلمون من أولئك الغزاة الغربيين إلى حيث لا رجعة^(٢) . وعادت الأراضي الإسلامية إلى أهلها على أيدي

(١) ابن الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٦ .
(٢) انطرطوس : بلد من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص . معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٠ .
(٣) انظر / د . سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الإسلامية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد الاسلامي ص ٩٣٦ .

سلاطين الممالك الذين حملوا لواء الزعامة في العالم الإسلامي وأخذوا على عاتقهم مهمة طرد الصليبيين من الأراضي المقدسة التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الشرق العربي وقد تم لهم ما أرادوا في أقل من نصف قرن من قيامهم (١) ولتتهم . والحق كما قال الدكتور عبد المنعم ماجد * أنهم برعوا في الفنون الحربية ، بحيث كانوا سادة يسودون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل وردعون من جارأوتهم (٢) .

ونختم حديثنا عن الفتوحات الإسلامية بإلقاء نظرة إلى ما يترتب على تلك الفتوحات من نتائج .

نتائج الفتوحات الإسلامية في عصر سلاطين الممالك :

١ - حماية الدولة الإسلامية من التمزق والضعف : أحيا سلاطين الممالك الخلافة الإسلامية فكانت رمزا لوحدة المسلمين . مما جعل لدى المسلمين الانتماء إلى العالم الإسلامي عامة وليس إلى قطر بعينه. وذلك نراه واضحا في اتحاد المسلمين عند تعرضهم لخطر خارجي . ولعل أصدق تعبير عن ذلك ما حدث في سنة ٦٨٠ هـ حيث تعرضت الجبهة الإسلامية لهجوم كبير من قبل مغول فارس . وفي هذا الظرف الرقيق برزت الرابطة الدينية كأقوى ما يكون الجوز . فقد توافدت إلى الميدان مختلف قوى

(١) انظر / د . أحمد شلبي : الحروب الصليبية بدوها مع مطلع الإسلام

واستمرارها حتى الآن . ج ١٩٦ - دار النهضة المصرية سنة ١٩٨٦ .

(٢) انظر / د . عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين الممالك

ج ٢٦ - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ .

الجبهة الإسلامية من أجل التصدي للفرقة . ومن ناحية أخرى احتشد
 جمع عظيم من المسلمين في الجامع الأموي بدمشق . وتضرعوا إلى الله
 وضجوا وبكوا وحملوا المصحف العثماني من الجامع إلى الصلي خان
 البلد وهم يسألون الله التصبر على الأعداء . وفي مصر كان أهلها
 يفتنون في صلواتهم وكثرة قراءة صحيح البخاري وأقبل الناس على تلاوة
 القرآن . وتجمعوا في المسجد الحسيني وفي المساجد وكثر ضجيجهم
 ودعائهم^(١) . فكانت الخلافة هي السياج الحامي للأمة الإسلامية التي
 تجتمع عليه ويقول الله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ**
مُحْسِنُونَ^(٢) ويقول أيضا : **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ**
عَزِيزٌ^(٣) . وسعى سلاطين الماليك إلى استدراج ما اغتصبه الصليبيون
 فأعادوا للأمة الإسلامية مجدها . فقد أصبحت في ذلك العصر قوية الشوكة
 فهابهم ملوك العالم وفي ذلك يذكر لنا ابن تيمزي الحوادث العديدة
 التي تؤكد ذلك بالنسبة للسلطان الظاهر بيبرس منها : أن تواقيمه
 التي كانت بأيدي التجار المترددين إلى بلاد القيقاق بأغاثهم من
 الصادر والوارد كان يعمل بها حيث خلو من مملكة باركف خسان ومنكوتر

(١) انظر / د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرق

في تاريخ الجهاد الإسلامي ص ٩٣٢ - دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٢٨ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٤٠ .

وبلاد فارس وقارمان^(١) . وعندما طلب السلطان قلاوون استسلام المجرمين الذين اعتدوا على التجار المسلمين بعكا . كان رد الصليبيين أن عقدوا مجلسا لبحث الأمر ، واقتراح مقدم الداوية وهو بمثابة المسئول عن العمليات العسكرية أن يبادر الصليبيون بالقبض عليهم وتسليمهم لقلاوون فورا . فبهم يخشون رد فعل السلطان قلاوون لمكانته ونفوذه ولتسه في ذلك الوقت ونجح سلاطين الممالك في تحرير الأراضي الإسلامية والحفاظ عليها واستبدال شعائر الكفر بشعائر الإسلام . ونتيجة لتلك الانتصارات أن ألقى العرب في قلوب الأعداء وغير مثال لذلك بلاد الأرمن حيث ضعفت شوكتهم وسعوا إلى طلب الهدنة مع سلاطين الممالك .

٢ - حماية المسلمين من الفتن : ارتكب الصليبيون الجرائم البشعة ضد المسلمين من قتل وتخريب هذا إلى جانب التصديق على المسلمين في حياتهم ما جعل المسلمين عرضة للفتن . فمن الله على المسلمين بأن وفق سلاطين الممالك في فتوحاتهم فعاثوا في عزة وأمن على أنفسهم ودينهم .

٣ - نشر الدعوة الإسلامية : شيد سلاطين الممالك المساجد للبلاد التي فتحوها وعينوا الدعاة واهتموا بتصحيح المفاهيم الإسلامية . حيث تسببت شهرة بعمرة أهل الصليب والحاقدين على الإسلام فكان من نتائج ذلك

(١) ابن تغرى - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ - المؤسسة المصرية العامة .

أن وجد مسلمون يتشبهون بالفرجة حتى أنه يذكر أن المسيحي كان يتزوج بمسلمة . فلا حول ولا قوة إلا بالله : فكان ولا بد أن تعاد الموازين إلى نصايها ونشر علماء العصر المملوكي في ذلك الوقت وهم كثرة الدعوة الإسلامية الصحيحة هذا إلى جانب القدوة الحسنة التي نتجت من سلوك القادة فكانت دافعاً لدخول كثير في الإسلام . فقد كثر عدد المغنول الذين أسلموا ووقدوا إلى مصر في عهد بيبرس وأكرمهم وعرفوا بالوافدين^(١) وحدث في سنة ٦٩٤ هـ أن وصل الرحبة جنود كثيرة نحو عشرة آلاف جندى من جنود بيدو ملك التتار طالبيين الدخول في الإسلام فأرسل الملك المعادل كتاباً إلى الأمير علم الدين سينجر لا استقبالهم وحسن إسلام هؤلاء القوم على أيدي سلاطين المالكة .

(١) انظر / د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي - مكتبة النهضة

الفصل الرابع
أبرز علماء العصر المملوكي
وأثرهم في نشر الدعوة الإسلامية

٩٣
* الفصل الرابع *

أبرز علماء العصر المملوكي

وأثرهم في نشر الدعوة الإسلامية

نذكر العصر المملوكي بعلماء نبغوا في مختلف الميادين . وأصبحت مصر في ذلك العصر كعبة العلماء فلقد نبغ فيها طائفة من فطاحل العلماء والأدباء والشعراء .

(فالقلقشندي صاحب (صبح الأعشى) والأبشنهي صاحب (المستطرف) وابن منظور صاحب (لسان العرب) ، وابن هشام النحوي العظيم الذي يلمع من النحوشأنا عظيما ، وابن عبد الظاهر ، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب (وفيات الأعيان) ، والصفدي صاحب (الوافي) ، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين في زمانه ، والعيني المؤرخ والمحدثين وصف .

والمقريزي صاحب (المخطط والسلوك) ، وأبو الفدا المؤرخ الجغرافي المشهور صاحب (تقويم البلدان) ، والنويري صاحب (نهاية الأرب في فنون الأدب) ، وابن فضل الله العمري صاحب (سالك الألبار في سالك الأضرار) ، وابن تغري بردي صاحب (النجم الزاهرة) وجلال الدين السيوطي صاحب (التأليف الشهيرة في التفسير والعلوم والتاريخ والأدب واللغة) ، وابن إياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني صاحب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) واستضافت^(١) مصر في ذلك العصر المملوكي جماعة من أئمة العلم والفلسفة في الشرق كالإمام ابن تيمية وابن قيم الجوزية وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون . كما وجد علماء في الطب أمثال ابن أبي أصيبعية صاحب

(١) أنظر / راسم رشدي : مصر والشراكسة ص ١٣١ ، ١٣٢ - القاهرة

كتاب (عين الأسماء) لـ (طبقات الأطباء) وعلى بن النخيس رئيس الأطباء - فسي
 يستشفي^(١) السلطان قلاوون وستلقى الضوء على أشهر علماء ذلك العصر
 من خلال دورهم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال علاقتهم بملاطيين
 الدولة المملوكية.

(١) أنطرد / أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٦٤١ -

مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

١ - العزیز عبد السلام

مولده ونشأته :-

العزیز عبد السلام * هو الشيخ الإمام العلامة عز الدين بن عیسیٰ السلام بن أبی القاسم الحسن بن محمد بن المهذب أبو محمد السلمی الدمشقی الشافعی^(١) شيخ المذهب ، وفيد أهله . ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسائة وكانت وفاته فی العاشر من جمادى الأولى من سنة ٦٦٠ هـ وقد نيف على الثمانين ودفن بسفح جبل المقطم ، وحضر جنازته الملك الظاهر بمرس وخلف من الأئمة .

أثره فی نشر الدعوة الإسلامية :-

يعتبر العزیز عبد السلام من العلماء الذين عاصروا الدولتين الأيوبيه والسلوكية وكان سبب خروجه من الشام رحمه الله إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صفد والتقيف إلى الفرنجة^(٢) . وأخرج من بلده بسبب ذلك فقام كان قويا فی الحق مجاهدا فی سبيل الله لا يخشى فی الله لومة لائم وصار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ثم انتزعها منه وأقره على تدريس الصالحية . وكان رحمه الله يحث المسلمين فی خطبه على الجهاد

(٢) المعنى : عقد الجمان ج ١ ص ٢٣٨ - الهيئة المصرية العامة

للكتاب ١٩٨٩ .

(٣) أنظر / ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٣٦ - دار الفكر العربي

في سبيل الله ويهاجم السلاطين إذا رأى منهم منكراً . وذكر أن السلطان سيف الدين قطز تلمز على يديه . وكان نتيجة ذلك أن كان قطز متفانياً في خدمة الإسلام وأهله .

وللعزيم عبد السلام مواقف بطولية رائعة فقد كان له نفوذ قوى لدى السلاطين . ومن تلك المواقف نذكر : حين أراد الملك المظفر قطز الخروج لقتال التتار بالشام ، وأراد أن يجهز الجيش ولم يجد ما يكفيه . فاحتاج إلى المساعدة بشئ من أموال الرعية . لمواجهة العدو والمفولى بقوة تكسر شوكة . فجمع القضاة والفقهاء لاستشارتهم في هذا وطلب الموافقة على ما عزم عليه . فسكت من كان في المجلس إلا الشيخ عز الدين الذي قال : " إذا طرق المد وبلاط الإسلام وجب على الحاكم قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط . ألا يبقى في بيت المال شئ من السلاح والعروج الذهبية والفضية والكبابيش المزركشة وأسقاط السيوف والفضة وغير ذلك وتبيعوا ما لكم من الحوائض الذهبية لللالى النفيسة . فيقتصر كل الجند على سلاحه ومركبه ويتمازواهم والعامه أما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في الجند من الأموال وللآلات الفاخرة فلا " (١) .

وأصبحت تلك الفتوى نموذجاً للقياس فيما بعد العصر المملوكي وبلغ من مهابة الشيخ عز الدين في قلوب السلاطين والأمراء أنه لما توفي سنة ٦٦٠ هـ حضر الجنازة خلق كثير وحضرها الظاهر بيبرس والمملوكاء ،

(١) ابن تغرى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ - المؤسسة المصرية العامة .

فقال لبعض خواصه * اليوم استقر أمرى فى الملك * ^(١) لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه لانتزع الملك منى . هذا إلى جانب إسهامه فى خدمة الدعوة بعلمه لقد جمع علوماً كثيرة وأفاد ودرس وله مصنفات حسان منها . التفسير ، واختصار النهاية ، والقواعد الكبرى والصغرى وكتاب الصلاة والفوائد العملية ^(٢) وغير ذلك .

(١) انظر / السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٤ - مطبعة الموسوعات .

(٢) انظر العيىنى : عقد الجمان ج ١ ص ٣٣٨ - الهيئة المصرية العامة

٢- ابن تيمية

مولده ونشأته :-

وهو * أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن علي بن عبد الله ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن أبي المحاسن . شهاب الدين بن أبي البركات مجد الدين الحارثي الأصل والمولد دمشق الدار والوفاة الحنبلي المعروف بابن تيمية^(١) الإمام العلامة الحافظ الحجة فريد دهره مولده بحران في يوم الإثنين عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستائفة من الهجرة .

نشأ الإمام في بيت علم وفضل وتربى في أحضان مدرسة الحديث السكرية بالقصعين بدمشق التي كان يرأسها والده . وقد أنعم الله عليه بسرعة الحفظ وقوة الذاكرة والذكاء الغارق والنبوغ المبكر^(٢) .

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)^(٣) فحفظ القرآن الكريم منذ حداثة سنه واستمر حافظاً له إلى أن فاضت روحه إلى ربها حتى أنه تلاه في سبحة القلعة بدمشق وغتمه ثمانين غتمه وشرع فحسى العادية والثمانين^(٤) حتى وصل إلى قوله تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ حَبْلِكِ مُتَّقَدِرِينَ)^(٥) . فأكمل القرآن بعد وفاته الشيخان عبد الله بن المحسب وعبد الله الزرعي .

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) أنظر / دكتور محمد رباب : محاضرات في تاريخ الدعوة الإسلامية ص ١٥٠ .

(٣) سورة الجمعة آية ٤ .

(٤) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٨ - دار الفكر العربي .

(٥) سورة القمر آية ٥٤ ، ٥٥ .

أثره في خدمة الدعوة الإسلامية :-

١ - سعة علمه :-

كان إماماً في التفسير وما يتعلق به عارفاً بالفقه ، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره ، وكان عالماً باختلاف العلماء ، عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم الثقلية والعقلية (١) .

وقد أثنى عليه جماعة من كبار العلماء ، من ذلك ما كتبه القاضي كمال الدين بن الزملكاني (٢) على كتاب (رفع الغلام عن إلامة الأعلام) تأليف ابن تيمية مالم يظن : تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحى الحافظ والجهتد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، قدوة الأئمة علامة العلماء . . الخ (٣) وقد وجد بخطه أنه قال اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها (٤) وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم

(١) انظر / ابن كثير البداية والنهاية ج ٢٤ ص ١٣٨ - دار الفكر العربي .

(٢) الزملكاني : قاضي القضاء والفتون جمال الاسلام كمال الدين أبو

المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني

الانصاري السامي الدمشقي الشافعي قاضي قضاء دمشق ولد في سنة

سبع وستين وستائة وتوفي سنة سبع وعشرين وسبعمائه ابن تيمية ،

النجوم الزاهرة ص ٢٧٠ - الموسسة المصرية العامة .

(٣) انظر أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٦١ .

(٤) انظر / ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤٠ ص ١٣٧ - دار الفكر العربي

وكتب على تصنيف لابن تيمية هذه الأبيات :-

ماذا يقول الواصفون له وصفاته جلبت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة هو نبينا المجودة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة أنوارها أربت على الفجر
وتعلم ابن تيمية العلوم التي كانت رابحة في عصره .

ولم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه . ولقد قال فيه أحد معاصريه
قد ألان الله له العلوم التي كانت رابحة في عصره ولم يترك باباً من الأبواب
إلا أتقنه . وإذا سئل عن فن من العلم ظن الرأي والسمع أنه لا يعرف غير
ذلك الفن . وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه ، استفادوا
في مذاهبيهم منه . ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك . ولا يعرف أنه ناظر أحدا
فانقطع منه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم من
غيرها ، إلا أفاق فيها أهله والنسوين إليه ^(١) . فقد كان رحمه الله قل أن سمع
شيئا إلا حفظه ، ثم اشتغل بالعلوم فدرس وتخرج على يديه علماء أجلاء
أفادوا الدعوة ومن أشهرهم ابن القيم الجوزية

٢ - جهادة ضد التتار :-

لم يقف ابن تيمية عند جهادة في العلم وإنما انتقل إلى ميدان القتال
ولم يتردد في أن يكون في طليقة المجاهدين بنفسه للتتار وهنا ظهر

(١) انظر المرجع السابق ج ١٤ ص ١٣٧ .

ابن تيمية العالم العامل ، المؤمن القوى ، المجاهد في سبيل الله . فكانت له مع العدو مواقف محبودة . وكان لهذه المواقف آثارها العظيمة في إنقاذ الروح الديني^(١) والوطني لدى السلاطين والأمراء وعامة الناس . فعندما هوب الجنود إلى مصر فارين . وصار التتار على أبواب دمشق فجمع ابن تيمية العلماء ، واتفق معهم على ضبط الأمور ، وأن يذهب على رأس وفد منهم وقد ذهب الشيخ مع الوفد ، والتقى بقائدان ملك التتار وقائدهم وقد أكسبا الله الشيخ حلة من المهابة . والإيمان والتقى . وقد ذكر الذين شاهدا اللقاء أنه ظل يحدث السلطان والسلطان يصغى لما يقول شاخصا إليه . وتحدث كلاما قويا كان فيه مصلحة للمسلمين .

وفي سنة ٧٠٥ هـ اشتد الخطر على الشام من هؤلاء التتار فأصبر الناس ما بين هارب ، ومستسلم . فخرج الشيخ في مستهل جمادى الأولى والناس يمتلكهم الهلع والزعج إلى نائب الشام . فحثهم على الجهاد وقسوى من عزيمتهم ووعدهم النصر على الأعداء إن هم صبروا وأعدوا العدة للقاء وتلا قوله تعالى " ذَلِكَ وَمَنْ عَاقِبَ بِهَذَا مَا غُفِرَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَكَفُورٌ غَفُورٌ " ^(٢) واث مع الجنود ليلة ثم عاد إلى دمشق وسأله النائب والأمراء أن يسافر إلى مصر يستحث السلطان على نصره الشام . فأجتمعت

(١) انظر / د محمد يوسف موسى : ابن تيمية ص ١٣٦ الهيئة المصرية

العلماء لكتاب ص ١٩٧١ .

(٢) سورة الحج آية ٦٠ .

بسلطان مصر والأمراء وقال لهم "إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقننا لسه سلطاننا يحميه" ثم قال لو قد رأيتم لستم حكام الشام ولا ملوكها واستنصركم أهلهم وجب عليكم النصر . فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم دعاياكم وأنتم تستولون عنهم^(١) وقوى جأشهم . فكان لهم النصر في تلك الكربة واشترك مع السلطان في موقعة شقحب في ميدان القتال سنة ٧٠٢ هـ . فهكذا كانت علاقته بالملوك يطبع في غير معصية . وينصح ويرشد في غير غلظة أو عنف إلا إذا تقاضاه الحق أن يقول في صرامة وقسوة^(٢) فقد كان رحمه الله مثلاً يحتذى به وقدوة صالحة في العفو عند المقدرة . مما كان له الأثر في هداية الكثيرين على يديه فقد استغفاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون في العلماء والقضاة الذين ناصروا خصمه . فأفتى بأن دماءهم حرام عليه . وأنه لا يحل إنزال الأذى بهم فقال له السلطان : إنهم آذوك وأرأوا قتلك مراراً . فقال الشيخ الكريم كلمة أضاءت جنبات التاريخ : من آذاني فهو في حل ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه . وأنا لا أنتصر لنفسي . ولم يكف الشيخ بالإمتناع عن الإفتاء والفتوى بعكس ما يريد السلطان . بل أخذ يخاطبه في العفو عنهم . فقال قاضي قضاة المالكية ابن مخلوف :

ما رأينا مثل ابن تيمية عرضنا عليه فلم نقدر عليه وقد رعلنا فصفح عنا وحاج عنا^(٣) . فهكذا تحقق قول الله تعالى جلها واضحا "وَلَا تَسْتَكْبِرُوا

(١) انظر د / محمد دياب محاضرات في تاريخ الدعوة الإسلامية المبسوط .

(٢) انظر د محمد محمد أبو زهرة : ابن تيمية حياته وآراءه الفقهية ص ١٣ .

دار الفكر العربي .

(٣) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١ ص ٥٤ - دار الفكر العربي .

الْحُسْنُ وَلَا السَّيِّئَةُ اذْ فَعَّ بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ
 كَانَهُ اُولَىٰ حَمِيمٍ (١) . ولقد لقي ابن تيمية في سبيل الدعوة إلى الله
 الأذى ولكنه صبروا حتسب أجره عند الله . فكانت من عباراته المشهورة
 يوم منعوا عنه الكتب والورق والقلم في سجن دمشق ٧٢٦ هـ ** إن حبسى خلوة
 وأخرجني من بلدى سياحة . وقتلى شهادة (٢)

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .

(٢) انظر / صلاح عزام : الحبه ومسئوليه الحكومه الاسلاميه لابن تيميه .

٣ - ابن حجر العسقلانى

مولده ونشأته :-

هو أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن حجر الشافعى العسقلانى الأصل المصرى المولد . القاهرى الدار والنشأ والوفاء ولد على أرجح الأقوال فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٧٣هـ أول مارس ١٣٧٢ م واستقر أجداده فى مصر التى انتقلوا إليها من عسقلان بأرض فلسطين^(١) وللعظيم شأن حياته فقد وضع تلميذه العالم المؤرخ شمس الدين السناوى كتاباً حافلاً بمراحل حياته .

أثره فى خدمة الدعوة الإسلامية :-

يتبوأ ابن حجر العسقلانى فى جدارة واستحقاق مركز الصدارة بين المحدثين والحفاظ فى العالم الإسلامى منذ بداية القرن التاسع للهجرة . وهو مركز لم يستطع احتلاله أحدٌ من عاصروه وزاحموه ولا من جاءوا بعده وشغلوا أنفسهم بهذا الضرب أو ذاك من الدراسة ، فاتفقوا على أنه حامل رأيهم والمقدم منهم والمهتدى برأيهم .

(١) انظر / ابن حجر العسقلانى : انباء الغربانيا الهجرية تحقيق

د / حسن حبشى - القاهرة من ١٩٧١ .

واين حجر متعدد الجوانب من حيث الثقافة ، فقد أسهم في
 الحديث والفقه والأدب والتاريخ ، وطبعت مؤلفاته صغيرها وكبيرها
 ومجالس إبلاته كما يشهد تلاميذه وغير تلاميذه من عاصروه ^{في} حضر والشمام
 وغيرهما من بلاد العالم الإسلامي . بطابع الدقة وتحكيم العقل والمنطق
 فهو لا يوزن خيراً إلا بعد أن يكون انتظمت له عدة أسباب الدراسة
 والبحث والتعميق والمقارنة . فقد كان رحمه الله أميناً في علمه مخلصاً
 للدعوة الإسلامية . فكانت جهوده مشهورة * وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ^(١)
 فقد ذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة في الحديث والفقه والتراجم وأشهر
 كتبه فتح الباري في شرح البخاري ، وهو في ستة عشر مجلداً مقدّمه
 ولو لم يكن له غيره من المؤلفات لكفى للتنويه بعلومه مكانته . على قول معاصريه
 والمنتفعين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر .

وكتاب (إتحاف المهرة بأطراف العشرة) في شان مجلدات . وكتاب
 (تهذيب الكمال) في مجلد ضخيم . وتنوعت مؤلفاته فشملت التاريخ ومن أشهر
 مؤلفاته في التاريخ : (كتاب الدرر الكامنة) في السيرة الثامنة . وكتاب أنبيا
 الغربا بانياً العمر .

وصار هو المغول عليه في هذا الشأن في سائر أقطار الأرض ، وقبلة
 الإئمة فلامه العلماء حجة الأعلام ، انتفع به الطلبة وحضر دروسه جماعته
 من علماء عصره وقضاة قضائهم ^(٢) .

(١) سورة البقرة من الآية ٢٨٢ .

(٢) انظر / ابو المعاسن : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٧ : ٢٢ .

هذا إلى جانب دوره في خدمة الدعوة من خلال سلوكه - فقـــد
كان رحمه الله يحسن لمن يسى * إليه ويتجاوز عن قدر عليه .

فكان ذا وقار ومهابة . وسقى العلماء وكانت أمانتهم أن يصلوا
إلى رتبته في الحديث فقد قال عنه السيوطي * إنه لما حج شريت من مساء
زمزم لأمر منها أن أصل في الفقه إلى رتبة سراج الدين البلقيني . ونسى
الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني^(١) .

(١) السيوطي : حسن المعاصرة ج ١ ص ١٥٧ - مطبعة الموسوعات .

٤ - جلال الدين السيوطي

مولده ونشأته :-

هو عبد الرحمن بن الكمال ابن بكر بن محمد بن سابق الدين ابن الفخر عثمان بن الناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسوطى . حفظ القرآن وهو من شالي سنين . وحفظ العمدة وشهاج الفقه والأصول وألفية ابن مالك^(١) واشتغل بالعلم مبكرا . وسافر السيوطى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب^(٢) والتكسور

ثمار علمه :-

قال السيوطى " رزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان واليدى على طريقة العرب والبلغا " . لا علمى طريقة المعجم وأهل الفلسفة^(٣)

وقد ظل السيوطى طوال حياته شغوفا بالدرس شتغلا بالعلم يتلقاة من شيوخه ويلقنه لتلاميذه أو يحرره فى الكتب والأسفار .

وأما كتبه . فقد أحصى السيوطى منها فى كتابه نحو من ثلاثمائة كتاب فى مختلف العلوم . فما زالت مؤلفاته صدراً غنيا للباحثين . وكان

(١) انظر السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٦ مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٧ .

(٣) المرجع السابق .

رحمه الله في حياته الخاصة مثلاً يحتذى به فقد كان على أحسن ما يكون عليه علماء ورجال الفضل والدين عفيفاً كريماً ، غنى النفس متباعداً عن ذوى الجاه والسلطان ولا يقف بباب أمير أو وزير ، قائماً برزقه . وله مواقف مع سلاطين الماليك تدل على نزاهته . فقد ذكر أن السلطان المغورى أرسل إليه هدية وكانت ألف دينار وخصياً ، فرد الدينار ، وأخذ الخصي ثم أعتقه ، وجعله حارساً في الحجرة النبوية . وقال لرسول السلطان . لا تعد تأثينا قط بهدية ، فإن الله أغنانا عن ذلك ^(١) فهكذا كانت صفات علماء ذلك العصر .

(١) انظر د / علي أحمد الخطيب / مجلة الأزهر عدد مايو ١٩٩٣ / ذو

القعدة ١٤١٣ هـ ص ٢ .

٥ - بدر الدين العيني

مولده ونشأته :-

بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف ابن محمود الشهير بالبدر العيني . ولد في بلدة (مونتابلين حلب وإيطاكية في السابع عشر من رمضان سنة اثنين وستين وسبع مائة من الهجرة ، ونشأ بها نشأة أبناء زمانه ، ف تلقى العلوم على أيدي والده القاضي شهاب الدين أحمد وعلى غيره من الشيوخ

أشهره في خدمة الدعوة الإسلامية :-

نال البدر من رفعة المنزلة وعلو الدرجة أيام السلطان برسيای ما لم ينله في أيام غيره من السلاطين . فكان يترجم له تاريخه (عقد الجمان) إلى التركية ، ويعلمه أمور الدين . ولمعرفة مكانة البدر ودوره في خدمة الدعوة الإسلامية ما قاله السلطان الأشرف برسيای " لولا البدر العيني لكان في إسلامنا شئ " وقد عدّه الحافظ ابن حجر في عداد شيوخه برغم تقاربهما في السن .

وقد ترك لنا البدر العيني رصيداً ضخماً في المصنفات في جميع العلوم المعروفة في زمانه ، حتى قيل إنه لا يقارن به واحداً من أهل عصره في كثرة مصنفاته . إلا أن يكون الحافظ ابن حجر ، ف صنف البدر العيني في علوم التفسير ، وعلوم الحديث ، وعلوم اللغة ، والفقه والتاريخ والمنطق والمروء (١) ولا شك في أن هذا التراث الذي خلقه لنا البدر العيني

(١) انظر / العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص ٤٠٠

يعطى فكرة واضحة عن القيمة العلمية التي كانت له في عصره ومسئوريه ما كان يتمتع به من سعة الإطلاع والمقدرة الفائقة في البحث والتقصي، ولقد أثبت عليه كثير من العلماء من عاصروه أو جاءوا بعده . فقيسـل عنه ، إنه شيخ العصر وأستاذ الدهر ، ومحدث زمانه المتفرد بالرواية والدراسة . وقيل عنه أيضا . كان إماماً عالمياً ، حافظاً للتاريخ واللغة وكثير الإستعمال لها . شاركاً في الفنون لا يمل من المطالعة والكتابة . ويكفي الإشارة إلى مؤلفه الضخم في التاريخ "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" حيث إن البدر كان شاهد عيان للأحداث وشاركاً فيها . وتعتبر مؤلفاته صدراً غنيا للباحثين إلى عصرنا هذا . وسجل ذلك العصر ملوك العلماء والدعاة الذين لهم مواقف عظيمة عند السلاطين . وهم أكثر من أن تحصيهم عدداً .

الباب الثالث

الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط

ويشتمل على فصلين :

- * الفصل الاول : مزاعم ومفريات حول الدولة المملوكية
- * الفصل الثاني : نهاية الدولة المملوكية

الفصل الأول

مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية

١١١
الباب الثالث *

الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط

(الفصل الأول)

* مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية *

ينال المستشرقون والعاقدون على الإسلام من كل دولة رفعت راية الجهاد ضد المعتدين ، حيث إن الدولة المملوكية كانت من الدول الإسلامية التي رفعت راية الجهاد ضد الصليبيين والتتار . ودافعت عن البلاد الإسلامية بقوة حتى قضت على الأعداء^(١) لذا فهي لم تسلم من مفترياتهم فمن تلك المفتريات إتهامهم المالك بالديكتاتورية والسكر والمجون والغبرة وباضطهادهم لأهل الذمة وسنحاول أن نتعرض لتلك المفتريات مبينين مدى صحتها :

أولاً : إتهام المالك بالديكتاتورية^(٢) :

وفي ذلك يقول الدكتور أحمد شلبي * إنه في إحدى المحاضرات التي ألقاها أستاذ التاريخ قال * إن المالك كانوا يحكمون مصر حكما ديكتاتوريا^(٣) ونحن نرد على هذه القرية بأنه لا بد عند الحكم على عصر من العصور لا بد أن نأخذ في الاعتبار خصوصية المجتمع وخصوصية العصر ، فإنه لمن الظلم الفاضل أن نقارن الحركة العلمية في العصر المملوكي مثلا بالحركة العلمية في عالمنا المعاصر . وكذلك لا يمكننا مقارنة نظم الحكم في العصر المملوكي بعالمنا المعاصر . ولكن الشيء والمنطقي أن نقارن بالعصور القريبة له .

(١) الديكتاتورية : لفظ مأخوذ عن اللاتينين ما يتعهد به (التنظيم

السياسي الذي بمقتضاه يستولي فرد أو جماعة على السلطة المطلقة

دون اشتراط موافقة الشعب^(٢) انظر / د . أحمد شلبي - موسوعة

التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٢٢ . مكتبة النهضة ١٩٩٠ م .

ولو تتبعنا ذلك المنطق لوجدنا أنَّ المالِك كانوا أكثر ديمقراطية من غيرهم
فلو نظرنا إلى ملوك الإنجليز من القرن الثالث عشر مثل الملك هنري الثاني
وابنه الملك جون . حيث خلع الإبن أباه بملوكة خائفة . وتسلط على الأمراء
ورجال الكنيسة^(١) وتاريخ تلك الدول مليء بالأحداث المظلمة التي توضح
أن الديكتاتورية كانت الأصل السائد في تلك العصور . فما أشد الخطأ
عندما نحكم على عصر سابق بعلم عصر حاضر . ومع ذلك لو نظرنا إلى حكم
المالِك برؤية معاصرة لا نضج لنا أن حكمهم لم يكن ديمقراطياً بالمعنى
المعاصر للديكتاتورية . حيث تمتع علماء ذلك العصر بتفوق وسلطات واسعة
لا يمكن أن تتاح لهم في ظل نظام ديمقراطي . ونشير إلى بعض العواقب
الرائعة لعلماء ذلك العصر . فنرى العزيز بن عبد السلام . حيث يروى لنا
السيوطي عنه في حسن المحاورة أن الشيخ تصدى لبيع أمراء الدولة الأتراك
وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحراراً وأنَّ حكم الرق مستحب عندهم والشيخ
صمم ألا يصح لهم بيعاً ولا شراءً ولا نكاحاً وبذلك تعطلت مصالحهم وكان
نائب السلطنة من جعلتهم فاستشار غضباً فاجتمعوا وأرسلوا إليه . فقال الشيخ
نعمقد مجلساً وننادى عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين . وقد حاول السلطان
منع الشيخ من هذه الفتوى فأبى وتمسك . وقد وصل الأمر إلى ترك الشيخ
مقر عمله . ولكن العامة من خلفه يؤيدونه وأخيراً رضخ السلطان لأمر الشيخ
وجمع كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ ثم عرضوا في مزاد ونادى الشيخ فغالبه

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

من شئهم حتى امتنع الحاضرون عن المزايدة في الشئ . فتقدم السلطان
فدفع شئنا أزيد من ماله الخاص لا من مال بيت المال حتى اشترى جميع الأسراء
الماليك واعتقهم لوجه الله فصاروا أحراراً وما قبضه الشيخ وزعه على الفقراء
وظلاب العلم وأقام مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة ^(١) . وليت الأمر
انتهى عند ذلك بل أن الشيخ رفض مبايعة الظاهر بيبرس سلطاناً وقال لسه
ما أعرفك إلا مملوكاً للينقذارى . فأنت عبد لا تصلح لتولي الأمر فالشرط أن يكون
ولي الأمر حراً . وذلك أن الرق يمنع من انعقاد الولاية ^(٢) ولكن من اعتسق
يجوز له أن يكون من أهل الولاية الكاملة وهي عدة شروط نجعلها " الإسلام
والحرية والذكورة والبلوغ والعقل " وأثبت الظاهر أنه اعتسق وأنه أصبح حبراً
فبايعة الشيخ بعد أن تأكد من حريته وتلك الحرية والمكانة العظيمة لهؤلاء
العلماء التي جعلتهم يخوضون في قضية تخص شخص السلطان لدليل واضح
على أن روح الإسلام كانت هي السائدة في ذلك العصر وهي التي جعلت
سلاطين الماليك يتقبلون ذلك الأمر بصدور رجب . وكان للشيخ محيي الدين
التتوي المتوفى في عام ٦٧٦ هـ مراقف مشهورة مع السلطان بيبرس ومراسلات
إليه فيها التوجيه الرشيد والنصح الصريح ^(٣) وقد حدث أن تعرضت البلاط
في بعض عهد الركود إلى أزمات مالية حادة اختل بسببها ميزان السواد

(١) انظر د / محمد دياب : محاضرات في تاريخ الدعوة الإسلامية

(٢) انظر د / سليمان محمد الطماوي : نظام الحكم والإدارة في الإسلام

ص ٤٣٣ دار الفكر العربي .

(٣) راجع / هذه المكاتبات في السيوطي ج ١ ص ٦٧ : ٧١ - مطبوعة

الموسوعات .

والمصرف فاضطرت الدولة إلى الضغط على مصروفاتها والدعوة إلى التقشف . ومخاربة البذخ والإسراف مع زيادة الموارد الإنتاجية ولكن ما السيئ سبل إلى تنفيذ تلك السياسة ؟ لم يكن من سبل أمام وزير الدولة فيعين تلك في سنة ١٢٥٠ هـ / ١٣٤٩ م إلا الاستعانة بأهل العلم ^(١) وتم اجتماع بسدار العدل تشاور فيه مع قاضي القضاة والقضاة وكبار الأحرار . يحضره السلطان ومناقشة ما أحدثته نساء السلطان وجواريسه من قصاص طوال تخب أذيالها على الأرض ، بأكماس سعة الكم منها ثلاثة أذرع وأبطل : ليس إلا زار البغدادى وحدد ثمن الإزار الحرير بألف درهم . وأن خف المرأة وسرورتها بخمسة مائة درهم . ناقش المجتمعون أثر هذه الموديلات الجديدة في الفلاحة السبلى تعاني منه طبقات الشعب وأن نساء القاهرة تشبهن بنساء السلاطين في تغيير زيهن ومجاراتهن في ملابسهن على حين تجد طبقات العامة مشقة كبرى في الحصول على ضروريات الحياة من ملابس ومأكل وأقضى المجتمعون بأن هذه من الأمور المحرمة التي يجب منعها ^(٢) وطبقت تلك الفتوى بالقوة على الجميع فهل تستطيع حكومة ما مهما بلغت من القوة أن تنصدي لعاشية نساء السلطان ورغباتهن ؟ وأن تناقش في حضرة السلطان أمراً حساساً كقصان نسائه هل تستطيع حكومة أن تفعل ذلك دون مساندة علماء الدين الإسلامى .

(١) انظر ابن بطوطة "الرحلة" ج ١ ص ١٤ - ط - القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر / د . نظير خسان سعداوى : صورة مظلة من عصر

المماليك ص ٦٤ .

أليس هذا مظهرًا من مظاهر قوتهم والحق يذكر أن سلاطين الماليك أتاحوا للعلماء القيام بدورهم العظيم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال مشاورتهم قبل الإقدام على أعمال هامة . وكان للعلماء والتجار أيضا المشاركة الفعالة في شئون الحكم مما ينفي الدكتاتورية من حكم الماليك وإن كنا لا ننفي وجود بعض الممارسات الدكتاتورية التي ترجع إلى سلاطين ضعاف لا يؤثر على عموم سلاطين الماليك . الذين تملكوا نواحي العرب والعجم على قول الرحالة ابن بطوطة ففتحوا أبواب القاهرة لجميع الوافدين أفراناً أو جماعات على تباين جنسياتهم ومذاهبهم السياسية ومعتقداتهم الدينية^(١) . فأوى إليها مملوك فقدوا عروشهم وسكنها لا جئون سياسيون اضطهدوا في أوطانهم وحل بها حجاج عابرون إلى الأراضي المقدسة ونالوا الرعاية والحماية وهاجر إليهم المهاجرون من المفضل بقصد الاستيطان .

ثانياً : اتهام الماليك بالسكر والمجون والعريضة :

اتهم كتاب التاريخ وخاصة المستشرقين سلاطين الماليك بالسكر والمجون والعريضة . هؤلاء السلاطين الذين كانوا يعتبرون أن الجهاد الإسلامي ضد أعدائهم من الفرنج والتتار وغيرهم فريضة من الواجب إقامتها . أي أنها لم تكن غائبة كما هي الآن في عالمنا المعاصر كما أنهم كانوا يزعمون أن الخلافة من الواجب إقامتها لأنها هي التي تجمع شمل المسلمين وهي كالسراج الواقى

(١) انظر المرجع السابق ص ٦٤ .

للأمة . وحينما لا حظوا ضعف سلطان الخلافة ، قاموا بتدعيمها ومساندتها
إيماناً منهم أن الخلافة جزء من الإسلام ^(١) . ولذلك نجد هم يتبعون استراتيجية
الإندماج التي نادى المالكي بها إلى توسيع الدولة المصرية لتشمل سوريا
وأرمينيا والأناضول وتكوين جبهة إسلامية قوية في مواجهة قوى الشنسية
المتحالفة وانطلاقاً من قوله تعالى : **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ^(٢)
وقامت هذه الدولة التي اتهم سلاطينها بالسكر والمجون والعريضة **بإتقان**
الحضارة من خطر التتار حيث قامت الجيوش المصرية بقيادة ملكها المظفر
قطز بالمبادرة لقايا العدو والقادم واستطاع الجيش المصري في عين جالوت
أن يلحق الهزيمة بالجيش التتاري ولأول مرة انهزم جيش التتار وتبعته الجيوش
المصرية ثم يقم بعض ما أنادوا بالآمنين . فقتلوهم وشرذوهم وصاروا يقتلون
وبأسرون . ولم يكتف المصريون بإجلائهم من دمشق . فلما أجلوهم بقيادة
الظاهر بيبرس من المدن السورية والثغور كانت هذه أول مرة تنكسر فيها تلك
الصخرة القوية التي جاءت من الصين هاوية على رؤوس الناس وخاصة المسلمين
ولا يعلم إلا الله أين كانت تقف لو لم يولده الله المصريين بنصره في عين جالوت
ومن المؤكد أنها كانت قاعدة أوروبا . ولذلك يقول المؤرخون إن مصر عندما
حطمت تلك الصخرة لم ينقذ الإسلام وحده بل أنقذت المسيحية أيضاً وبسبب

(١) انظر د / جمال عبد الهادي : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

الضريق إلى بيت المقدس ج ١ ص ١٦٣ - الوفاء للطباعة والنشر .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٣

أنقذت الحضارة من أن يقضى عليها أولئك الوحوش ^(١) . فليعرف أولئك الذين
تطاولوا على سلاطين الدولة المملوكية أنهم جنوهم بضيعهم أمام التتار من
النساء . هؤلاء القوم الذين اتهموهم بالذكور والمجون قاموا برحلة جهنم
طويلة أمام الصليبيين فتحت مواصلة أعمال صلاح الدين بعد هدنة طويلة انتهت
بتصفية الإمارات الصليبية المتبقية والاستيلاء على عكا آخر معقل للصليبيين .
فكان سلاطين المماليك يحق حماة الدولة الإسلامية . فيذكر أن بيبرس عندما
خلعوا منه الهدنة رد عليهم بمنتهى الجفوة وقال لرسولهم ردوا ما أخذتموه من
البلاد ونكروا أسرى المسلمين جميعهم فإني لا أقبل غير ذلك ثم طردهم من
مجلسه ما يدل على تصميمه على القتال ^(٢) . ثم لو أننا نظرنا إلى عهد المماليك
في مصر . وقبيل هذا العهد بما وصلت إليه الخدمة الاجتماعية في إنجلترا
أو روسيا ؟ إننا ندع الإجابة على هذا التساؤل للوثيقة التاريخية التي أثبتت
فيها * وحجة وقف مستشفى قلاوون * فقد جاء في هذه الحجة ما يلي :-
* أنشئ هذا البيمارستان لمداداة المرضى من المسلمين الرجال والنساء من
الأغنياء المقربين والفقراء المحتاجين بالقاهرة وضواحيها من المقيمين بها
والواردين عليها وعلى اختلاف أجناسهم وتباين أمراضهم وإصاباتهم . يدخلون
جموعا ويوجدنا وشبابا ويقوم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمدادتهم
لحين برئهم وشفايتهم ويصرف ما هو معد فيه للمداواة ويفرق على البعير
والقريب والأهل والقريب من غير اشتراط لمعوض من الأعواض ويصرف الناظر من ربح
هذا الوقف وما تدعوا حاجة المرضى إليه من سرر جريد أو خشب على ما يراه

(١) انظر / د . محمد محمد أبو زهرة : الامام ابن تيمية حياته وعصره

وآراؤه الفقهية ص ١١٥ - دار الفكر العربي .

(٢) انظر / د . أحمد مختار المبادئ : تاريخ دولة المماليك المبررة ص ٤٧ .

مصلحة ، أو لحف محشوة قطناً وطراريج محشوة بالقطن . فيدخل لكل مريض من الفراش والسرير على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملاً في حق كل منهم يتقوى الله وطاعته بأذله جهده وغاية نصحه فهم رعيته وكل راع مسئول عن رعيته ويباشرفي المطبخ بهذا البينسارستان ما يطهى للمرضى من دجاج ولحم ويجعل لكل مريض ما طبخ له في زبدية خاصة به من غير المشاركة لعرض آخر ويفطيمها ويوصلها لكل مريض إلى أن يتكامل إطماعهم ويستوفى كل منهم غذاءه وعشائه وما وصف له بكرة وعشياً . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه من الأطباء المسلمين الذين يباشرون المرضى مجتمعين ومتناوبين ويسألون عن أحوالهم وما يجد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص ما ويكتبون ما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء أو غيره في " دستور ورق " ويلتزموا بالمبيت في كل ليلة بالبينسارستان مجتمعين متناوبين ويباشرون العداواة ويتلطفون فيها . ومن كان مريضاً في بيته . . . وهو فقير . كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاجه من الأئمة والأدوية والمعاجين وغيرها ، مع عدم التضيق في الصرف . . . الخ هذه حجة مستشفى قلاوون التي أملت بها الروح الإسلامية من سبعة قرون والتي تدل على تمسك سلاطين المماليك بالشرعة الإسلامية وتدل أيضاً على التقدم العلمي الواضح في عزل المرضى عن بعضهم البعض خشية من انتشار العدوى في وقت كانت أوروبا وقتئذ أقطاراً لا تعرف غير قوانين الغاية^(٢) فهل يعقل أن

(١) انظر / د . محمد محمد أمين الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر

ص دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

(٢) انظر / د . محمد الغزالي : ليس من الإسلام ص ٢٧ - مكتبة وهبة .

شتمهم عصرا بأكمله بالمجون نتيجة لحوانث معدودة وإن كان استند البعض إلى زيادة الإضطرابات الداخلية . في دولة الماليك البرجية . ولكن المؤرخين الذين يعتمدونهم . أجمعوا على أن حكم بعض ملوك الشراكسة كان مثلاً يحتذى به في النزاهة ، والسهر على راحة الرعية ونشر العلوم والمعارف ، حتى كسان الناس يكونونهم لفجيعتهم ومن هؤلاء الملوك العظام برفوق والأشرف برسبى وقانصوه الفورى وطومان باي . وأليك لو جمعت عدد السنين التي حكم خلالها هؤلاء لوجدتها تزيد على المائة عام من مجموع السنوات التي حكم خلالها ملوك الشراكسة وهو مائة وخمسة وثلاثون عاماً . فلقد جاء السلاطين الماليك الوقوف من مساليتك المشرق والمغرب ومن العرب والعجم ومن الدول الإسلامية ومن قارات أفريقيا وأوروبا وآسيا^(١) . حقا لقد غدت القاهرة حاضرة الدنيا فسي عهدهم .

ثالثاً : اتهام السلاطين الماليك باضطهاد أهل الذمة :

يزعم المستشرقون ومن سار على سنوالبهم أن أهل الذمة اضطهدوا في العصر المملوكي . وفي الواقع أن معاملة سلاطين الماليك لأهل الذمة كانت مستمدة من الروح الإسلامية ملتزمين العدالة تجاه غير المسلمين عملاً بتعاليم الدين الإسلامي . فقد تمتع أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود والنصارى بممارسة

(١) انظر / د . راسم رشدي : مصر والشراكسة ص ٤٨ .

(٢) انظر / د . نظير حسان سعداوى صور ومظالم من عصر المماليك

كل المهن والحرف التي مارسها المسلمون ومن ناحية أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أن اليهود والنصارى فقد تملكوا العقارات في شتى أنحاء البلاد إما عن طريق البيع والشراء وإما عن طريق المزاينة . كما تدل الوثائق على أن اليهود والنصارى كانوا يتعاملون مع المسلمين في عمليات البيع والشراء في حرية تامة في ظل القرآن الكريم الحاكمة آنذاك^(١) ورغم ذلك استشهد أهل الذمة في ذلك العصر بعيولهم وتواطئهم مع التتار ضد المسلمين . مما جعل الملك الظاهر بيبرس والذي استشهد بالعدل والأخلاق الحميدة لم يعاملهم معاملة تنطوي على العطف والرعاية بسبب ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن . فقد حدث أن أكثر الحريق بالقاهرة أثناء اشتغاله بفتح أرسنوف سنة ٦٦٣ هـ وأُشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران . فلما عاد بيبرس إلى مصر أكرع عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم ثم أمر بإحراقهم فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاي أتاك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيسة ما أحرق وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار في كل عام فأطلق صراحهم وتولى بطريقهم دفع الأموال المطلوبة والتعهد بالألأ يعودوا إلى فعل شئىء من المنكرات وألا يخرجوا عما هو مقدر لأهل الذمة^(٢) وكان عهد الناصر أكثر عطا على النصارى من سبق من سلاطين المماليك . حتى أنه أمر بإعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته ومنع عنهم الأذى . اللهم إلا إذا استتبنا بعض الحوادث العارضة التي كانت تؤدي إلى تغير السلطان العامة . أما مرسوم الملك الناصر بتميز عما منهم فكان له ما يبرزه وهو ما كان يخشاه من عيون النصارى

(١) انظر د / علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ١٤٩ -

النهضة المصرية سنة ١٩٦٧ .

(٢) انظر د / جمال الدين سوزر : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٣ - دار

الفكر العربي ١٩٦٠ .

الباقين من الحملة الصليبية وأن يكون بعض الذميين عيوناً لهم ^(١) وحتى لا يبيت
من يميلوا إلى الصليبيين سمومهم في الجماعة الإسلامية فالمعاملة كانت مسن
جنس العمل . حيث أحسن سلاطين المماليك إلى أهل الذمة طالما التزموا
بواجباتهم وجهدوا لحماية الأمة الإسلامية . وذلك ما يقتضيه العقل السليم
والشرع وخلاصة القول * أن الموقف الرسمي لسلاطين المماليك تجاه رعاياهم
لغير المسلمين من خلال الوثائق الكثيرة التي خلفها لنا ذلك العصر كانت ^(٢)
تحفظ لأهل الذمة حقوقهم ومصلحتهم . فقد حددت المراسيم من السلاطين
والأمراء طوال عصر المماليك التي تحفظ لأهل الذمة حقوقهم .

(١) انظر / د محمد محمد أبو زهرة : ابن تيمية حياته وآراؤه الفقهية

ص ٦٣ - دار الفكر العربي .

(٢) للاطلاع على تلك الوثائق راجع / قاسم عبده : أهل الذمة في مصر

ص ٤٤ - دار المعارف سنة ١٩٨٣ .

الفصل الثانى

نهاية الدولة المملوكية

نهاية الدولة المملوكية

أسباب سقوط الدولة المملوكية :-

تعرضت الدولة المملوكية إلى عوامل عديدة متشابهة كانت سببا في انهيار تلك الدولة التي حكمت لمدة قرنين ونصف من الزمان . فهناك عوامل داخلية تكمن في انهيار الأنظمة والفساد في كيان الدولة المملوكية هذا إلى جانب العوامل الخارجية التي كانت بمثابة المعجل لسقوط الدولة التي كانت على حافة الانهيار .

أولا : العوامل الداخلية :-

حيث دبت الشخوخة في أوصالها واعتري^(١) الفساد في نظمها . فمجزت عن الاحتفاظ بكيانها وسرى الطعف في دولة سلاطين الماليك ورجع هذا الضعف إلى عوامل أساسية تتعلق بالنظام الذي قامت عليه الدولة المملوكية وأهم هذه العوامل :-

١ - فساد النظام الإقطاعي :-

الدولة المملوكية دولة إقطاعية حيث إن الأرض ملك للسلطان . الذي يقوم بتوزيعها على الجنود . وأي هزة زراعية معناها انهيار النظام . وبالتالي الدولة لذا حرصت الدولة عندما عاجزت على تلبية احتياجاتها إلى قسـرض ضرائب جديدة على الشعوب مما يؤدى إلى قيام اضطرابات كانت معجلة لنهاية الدولة المملوكية .

(١) انظر د / نعم زكي طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب فيسى
آواخر العصور الوسطى ص ١٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٩٧٣ .

٢ - اختلال نظام الماليك الاجتماعي والحربي :-

اختل النظام الاجتماعي والحربي نتيجة لإهمالهم الأسس التي قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى . حيث كانوا يصلون إلى مصر صفاراً يتعلمون الطاعة يتعلمون بالدين والأخلاق . وأدرك مؤرخوا ذلك العصر الدور الحيوي في سلوك الماليك فيذكر ابن تغري لفا ذلك فيقول " لله در ذلك الزمان وأهله ما كان أحسن تديبرهم وأصوب حرسهم من جودة تربية صفيهم وتعظيم كبيرهم حتى ملكوا البلاد ودانت لهم العباد واستجلبوا خواطر الرعية فنالوا الرطب السنية " (١) وجعلها العقري من مفاخر السلطان قلاوون حيث قال " لو لم يكن من محاسنهم إلا تربية ماليكه وكشف شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله "

هذا الجانب الى خضوع المملوك لتربية عسكرية في مرحلة الشباب فأصبحت لديهم القوة العسكرية والتي قاد أمرها الروح الإسلامية فكان لهم مواقف عظيمة في الجهاد ولكن سبحانه وتعالى يغير ولا يتغير . حيث تولّى الحكم سلاطين أهملوا ذلك الجانب التربوي . وهلب الماليك وهم في سن الشباب وتلك عملية خطيرة إذ أن قديم الماليك من مناطق مختلفة وهم في هذا السن جعل الأفكار متضاربة ما أفقدهم روح النظام والطاعة وحل محلها العصيان والتفرد وكانت الطامة الكبرى جهلهم الأصول

(١) ابن تغري النجوم الباهرة ج ٨ ص ٢٢٨ المؤسسة المصرية العامة .

الشرعية والعسكرية معا. وفي عهد الناصر فرج^(١) أهمل شأن الماليك حتى صاروا من أرذل الناس وأدناهم وأخطهم قدرا وأشجعهم نفعا وأجهلهم با أمــــر الدين ، وأكثرهم إغراغا^(٢) وفي ذلك يقول الله * وَمَنْ أَكْثَرُ عَنِ ذِكْرِى فَإِنَّ لَمْ يَمِيشَةً صَنَكًا *^(٣) فكان ذلك سبيلهم إلى الإنحراف .

٣ - انحراف الماليك :-

انتشر الفساد فى كيان الدولة المملوكية. ويذكر أن الناصر فرج كما يحدثنا عنه بن إياس : أنه جعل شرب الخمر من شعائر الملكة عــــام ٧٩١ هـ - سن ١٣٨٩ م فكان الأتراك يجتمعون فى الميدان الذى تحت القلعة يشربون ويسكرون بحضور السلطان^(٤) . وانتشر اللهو والمجون والتبذل وفى ذلك بلاء عظيم حيث تجاهروا بالفسكات فكثرت ذنوبهم وفى ذلك يقول بن القيم * ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقمة

(١) الناصر فرج : هو السلطان فرج بن السلطان برقوق أول ملوك الجراكسة كان الناصر هذا اعظم الناس حزلا لنا لدين الاسلام واشتمهم طلعه على المسلمين والعجيب أنه لما ولد أقيم يلبغا الناصرى. وبتاشــــــ بن فيشره أباء فساء (بلفاق) يعنى فتته . فلما خلاص أبوه مــــــ بن سجن الكرك ساء فرجا فكان أسفه الاول وهو الحقيقى . انظر بن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأبناء الغمر ج ٢ ص ٥١١ .

(٢) انظر/ على مبارك : الخطط التوقفية ج ١ ص ١٣٤ الهيئة المصرية العامة : ص ٦٩ .

(٣) سورة طه آية ١٢٤ .

(٤) ابن تفرى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠ : الموسسة المصرية العامة ،

فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نعمة إلا بذنب
كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما نزل بلاء إلا بذنب
ولا رفع بلاء إلا بتوبة^(١) وقد قال الله تعالى * وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ
مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ^(٢) وقال تعالى * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ^(٣) وفي ذلك يقول
الشاعر :-

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هوى ذهب أخلاقهم ذهبوا
وتكاسلوا عن الجهاد فانطبق عليهم قول الإمام بن تيمية * إن الناس
إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم ، وجعل
بأسهم على عدو الله وعدوهم وإذا لم ينغروا في سبيل الله عذبهم الله بسائر
مالبسهم شيئا ويزيق بعضهم بأس^(٤) بعض * فكان حالهم هكذا حيث تفرقت
كلمتهم وصاروا أحزابا وشيعا .^(٥)

وصارت بينهم الحروب المتعاقبة . وتقاتلوا في حارات القاهرة
وعواحيها وتولى الحكم سلاطين ليس لهم من الحكم إلا اسم لصغر سنهم ،
فتسارع الأسرا واستبدوا بالسلطة . فكان يتولى الحكم في السنة الواحدة

(١) ابن القيم : الجواب الكافي ص ٤٩ مكتبة المتنبلى

(٢) سورة الشورى آية ٣٠ .

(٣) سورة الانفال آية ٥٣ .

(٤) بن تيمية : الفتاوى الكبرى ج ٥ ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) أنظر / على مبارك : الخطط التوفيقية ج (١ ص ١٤٥) الهيئة المصرية
العامة .

٤ - انتشار الرشوة والمحسوبية :

إن الرشوة والمحسوبية إذا ما انتشرت في المجتمع تعظم عليه كما تعظم في المكروبات والأمراض الخبيثة على الإنسان .

ولذا نجد الشارع يحرم ذلك فيقول الله تعالى * وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحَمَامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(١) . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ^(٢) .

وروى الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمر ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم * لعن الله الراشي والمرتشى * ^(٣)

وقال العلماء الراشي هو الذي يعطي الرشوة والمرتشى هو الذي يأخذ الرشوة . وإنما تلحق اللعنة الراشي إذا قصد بها أذية مسلم أو ينال بها مالم يستحق ^(٤) .

وأصبحت الرشاوى والمبذلات هي القاعدة المتبعة في تولي الوظائف والمشكلة أنها أصبحت هي القاعدة في تولي وظيفة المحاسبة

(١) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٢) سورة النساء آية ٢٩ .

(٣) مستند الإمام بن حنبل - المجلد الثاني ص ٣٨٧ دار الفكر العربي .

(٤) أنظر / الذهبي : الكائز ص ١٤٣ - مكيه المتنبى .

فيذكر أنه خلال حكم السلطان الناصر فرج أصبح من الممكن أن نجس
ثلاثة أو أربعة تعيينات^(١) في شهر واحد وانتشرت المحسوبة التي جعلها
رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسباب سقوط المجتمعات فمن عاشه رضى الله
عنها قالت كانت مخزومية تستعير المتاع وتجده فأمر النبي صلى الله
عليه وسلم بقطع يدها فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلوه فيها
فكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي يا أسامة لا أراك تشفع نفسك
حد من حدونه الله تعالى ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال
"إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق
فيهم الضعيف قطعوه : والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت
لقطعت يدها فقطع يده المخزومية"^(٢)

فالمحسوبة تعطى الشيء لمن لا يستحق وانتشرت في عهد السلطان برقوق
حيث أنعم على قرية الأمير قجما من بأمر المائة وتقدم ألف بالديار المصرية،
وهو أن هذا لا يحسن تلك اللفظ بالشهادتين^(٣)
السلطان

(٢) انظر / د . سهام مصطفى أبو زيد : الحسنه في العصر السلوكي

الهيئة المصرية العامة الكتاب ص ١٩٨٦ .

(٢) سنن النسائي - شرح الحافظ السيوطي - الجزء السابع والثامن

المكتبة العلمية بيروت - لبنان ص ٧٥ .

(٣) انظر / بن تغري : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٩٨ - الموسسة المصرية

العامة .

ثانياً : العوامل الخارجية :-

تعتبر العوامل الخارجية بمثابة المعجل لسقوط الدولة المملوكية
التي أصبح سقوطها نتيجة حتمية بسبب انهيارها الداخلي .

١ - الصراع بين المماليك والبرتغاليين :-

عاشت الدولة المملوكية عيشة مترفة نتيجة للدخول الكبير التي حصلت
عليها عن طريق التجارة في المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغرب^(١)
إنَّه من المعروف أنَّ حركة المفلول التوسعية أدت منذ القرن السابع
الهجري الثالث عشر الميلادي إلى ضياع^(٢) أهم طرق التجارة الرئيسية
المألوفة بين الشرق والغرب وخاصة طريق الخليج الفارسي والطريق البحري
الباريسر قند ، وبذلك لم يبق أمام الدولة طريق آمن بعيداً عن عبث
المفلول سوى طريق البحر الأحمر ومصر .

وقد استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة فحققت لهم د خلا كبيراً .
فغرضت ضرائب جاهظة على الواردات الأوربية . فبدأت الجهود لاكتشاف
طريق آخر غير طريق مصر فكان اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء
الصالح وتلك كانت أكبر كارثة تعرضت لها الدولة المملوكية نتيجة لذلك

(١) أنظر / د . نعيم زكي : طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب

أواخر العصور الوسطى ص ٣٧١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٩٧٣

(٢) أنظر / د . عبد الرحمن الراغب : سعيد الفتاح عاشور : مصر

في العصور الوسطى ص ٥٢٨ .

الانقلاب المفاجئ في طرق التجارة الدولية ما حزم سلاطين الممالك من المورد الأول الذي استمدوا منه أسباب قوتهم ^(١) وعظمتهم وأدركوا خطورة الأمر فدخلوا في حروب مع البرتغاليين إلا أنها باءت بالفشل وكسب النصر الطريق الجديد ^(٢) فلجأ سلاطين الممالك إلى فرض ضرائب ما أدى إلى حدوث اضطرابات وثورات عنيفة .

٢ - الاضطرابات الخارجية :-

جاءت من الخارج فقد اعتاد أمراء سوريا بأن يقوموا بحركات ثورية عنيفة ، شغلت جزءا كبيرا من جهود السلاطين لقمعها هذا إلى جانب غارات البدو المتكررة . وغزو المغول في عهد تيمور لسنك . وبضايقات قراصنة الفرنجة ^(٣) في البحرين الأبيض المتوسط والأحمر .

٣ - الصراع مع الدولة العثمانية :-

سادت علاقات الود بين الدولة العثمانية والمملوكية فترة من الزمن ^{الذي يبرر} حيث إن الدولتين يربطهما ببعض الدين الإسلامي ولعل أدل على ذلك هو ترحيب الممالك ترحيبا واضحا بالانتصارات التي حققها العثمانيون

(١) انظر المرجع السابق ص ٥٢٨ .

(٢) انظر / د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٦٣ -

مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

(٣) انظر / د . علي ابراهيم : استخدام المصادر وطرق والبحث ص ٣٣ .

لحد بيرنطة ، وعندما سقطت القسطنطينية شاركت ^(١) مصر وسوريا العثمانيين في أفراحهم وفي مواكب النصر التي ازدهرت هنا وهناك بمناسبة هذا الحدث البهيج . ولكن العلاقات اتخذت طابعاً آخر يتسم بالتوتر في عهد السلطان قايتباي سلطان الدولة المملوكية والسلطان بايزيد الثاني سلطان الدولة العثمانية فكانت تلك المناوشات ^(٢) مقدمة لحروب عديدة انتهت بسقوط الدولة المملوكية على أيدي العثمانيين في موقعة الرايدانية ١٥١٧ م .

ومن أسباب انتصار الدولة العثمانية الأسباب التي ذكرناها في سقوط الدولة المملوكية حيث كانت في مرحلة الشيخوخة على عكس الدولة العثمانية هذا إلى جانب تميز الدولة العثمانية باستقرار نظمها وتفوق أسلحة الجيش العثماني الذي اعتمد على الأسلحة النارية المتقدمة مع اعتماد المالك على البطولة الشخصية .

وكان للإسلام عامل مهم في ميزان الدولة العثمانية إذ أن الدولة المملوكية انتصرت على الصليبيين والمغول نتيجة لرفع راية الجهاد ، أما في تلك المرة فالزحف دولة إسلامية تشيد باجتماع ^(٣) كلمة المسلمين .

(١) أنظر / د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٨١ -

مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

(٢) أنظر / د . نعيم ذكي : طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب

اواخر العصور الوسطى ص ٣٢ .

(٣) أنظر / د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٦٤ -

مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

سقوط الدولة المملوكية :-

نتيجة للأسباب التي سبق ذكرها أصبح سقوط الدولة المملوكية
نتيجة حتمية .

فيطرد الصليبيين من العالم الإسلامي ونهاية المغول في العراق
وغرب آسيا ظهر في العالم الإسلامي قوتان كبيرتان هما الدولة العثمانية
والدولة الصفوية ببلاد فارس إلا أن الأولى من أنصار المذهب السني
والثانية من غلاة الشيعة فشب بينهما نزاع طويل انتهى بانتصار العثمانيين
بقيادة السلطان سليم الأول وحدث نزاع بين السلطان قنصوة الغوري
والسلطان سليم الأول انتهت بالتقاء الجيشين العثماني والمملوكي فبقي
مرج دابق ١٥١٦ م وانتصر الجيش العثماني وقتل الغوري بعد أن دافع
عن البلاد بشجاعة فائقة ولكن لم يحالفه النصر وتولى الحكم طومان باي بعد
الغوري وقد حكم حكما حسنا^(١) في المدة التي قبض فيها على صولجان
الملك وكان محبوبا في البلاد جميعا وبرهن على أنه شجاعا كريما عادلا^(٢)
في كل من عهدي نيابته عن قنصوه وسلطنته ويذكر أنه كان راغدا لتولي
الحكم حيث كانت الدولة منهارة إلا أن العلماء صبغوا عليه قبقلا والتقى
بجيسن العثمانيين عند الريدانية ١٥١٧ م وخانه بعض أتباعه
به الهزيمة وشنق طومان باي على باب زويلة ويذكر أن السلطان سليم أعجب

(١) أنظر/ وليم مويسر : تاريخ الممالك البحرية ص ١٢٦ - مطبعة
المعارف القاهرة .

(٢) المرجع السابق ص ١٨١ .

بشخصيته وعزم ألا يقتله لولا أن وشى به بعض الخونة فقتل ويقتله أنقطع
 حكم^(١) المالك الجراكسة وهذا شأن الدنيا في أبنائها فتقلب بهم
 وتتحول عنهم . فسيحان من لا يزول ملكه .

(١) انظر / القرمانى : أخبار الدول وأماز الاول في التاريخ ص ٢٢٠ -
 علم الكتب بيروت - مكتبة العتيق بالقاهرة .

الخاتمة

الخلاصة

وبعد هذا العرض لسيرة الدعوة في الدولة المملوكية نخلص إلى النتائج

التالية :-

١ - الصيغة الإسلامية للدولة المماليك :

فبرغم ما قيل عن دولة المماليك من ألسنة الأعداء الحاقدين ممن أنها دولة قامت على الصراع وسلب الشعب حقه إلا أننا نلمح أن الدولة المملوكية قد صبغت الصيغة الإسلامية قولاً وعملاً بدءاً واختتاماً دعوة وحرباً ، ودليلنا على ذلك أن هؤلاء المماليك جيئ بهم لتكوين الجيوش الإسلامية ليحاربوا المشركين ، والدليل الثاني الدعوة والدعوات والمنشآت الدعوية في تلك الدولة ، والدليل الثالث انتصارات المدوية لتلك الدولة في كثير من المواقع الإسلامية ولا سيما عين جالوت ، والدليل الرابع : إحياء الخلافة العباسية .

٢ - الدين الإسلامي لا يرتبط بجنس أو لون بعيداً عن التعصب وعن القبلية وعن الجنس وعن اللون ، جاء الإسلام متحرراً من الارتباط يقوم دون قوم ، بل جاء للناس جميعاً ، وهذا ما حققته الدولة المملوكية كمثال عملي لذلك حيث أثبتت أن الجنس واللون والأبيض والأسود كله في ميزان الإسلام سواء وقد مدت تلك الدولة بالرغم من منشأها الأعجمي انتصارات تقارب أو تزيد ما حققه العرب .

٣ - قيمة الدعوة في نصرته الدول :

من حكمة الله في أرضه ، ومن مشيئته في خلقه أن جعل من أسباب النصر اتباع سبيله والتسك بحبله ، ورأينا ذلك قد تحقق عمليا ونظريا ، ففي الجانب النظري تعهد ملوك تلك الدولة بنشر الدعوة فأيدوها بالثمن والغالي ، فأنشأوا النظم الإسلامية والمدارس النظامية والمكتبات والمدارس وانطلق الدعاة في أرجاء الدولة معلمين الناس بينهم وأشر ذلك في الجانب العملي أن صارت دولة المماليك دولة نهاية الجانب قوية المجد فيمجرد ظهور قواتها على الحدود الإسلامية يطمئن الغساني والرائح والمقيم والذاهب من المسلمين على أهلهم وماله هذا الذي جعل تلك الدولة تجابه أكبر قوة من الهمجية على ظهر الأرض ألا وهي قوة التتار ما جعل الناس يطلقون على ملوك تلك الدولة اسم " سلاطين الإسلام " .

٤ - الحذر من أعداء الإسلام المدلسين :

ومن أهم ما توصلت إليه في ذلك المجال أن التسمع لأعداء الإسلام فيما يبتونه بين ظهرانيها من سموم يخفي علينا الحقائق الكيسرى قلولا فضل الله علينا لسقطت هذه الدولة المملوكية من تراثنا الإسلامي العميق . فلقد تعرضت دولة المماليك لحملة شعواء من المدلسين والمستشرقين والعلماء والغربيين ، وغرضهم من ذلك أن يغفل التاريخ الإنساني تلك الدولة التي أنقذت البشرية من الهمجية والدمار ومن ثم لا يكون للمسلمين أي دور من إنقاذ البشرية من العنائب والدمار ، وعلى جانب آخر تهدف تلك الحملات الشعواء على السدول

الإسلامية وخاصة دولة الماليك إلى أن يفقد المسلم هويته ، ويفقد جذوره العريقة التي تربطه بالماضي فيعيش المسلم مسوخا لا أصل له ولا تاريخ يستند في المستقبل .

• تسلط الأعداء يؤذن بزوال الدول :

من ضمن ما ابتدأت به دولة الماليك الصراعات المستمرة بين بعض من الأشخاص ذوي النفوس المريضة فلقد تناسى أولئك النفر وأصبر الصلة الإسلامية ومزقوا بعضهم من أجل دنيا زائلة ، ومتعة راحلة وكان ذلك الصراع الدموى يحتد ويبلغ أوجه عند ما يموت أو يقتل الحاكم ، وتظهر الثورات والمظاهرات في الشوارع ويستمر القتل ، وهنا بلغ الجرح مداه ونخر السوس في عظام الدولة ، وتحقق فيهم وعد الله عز وجل : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَشَهِدُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيَهْزِمَ أَقْدَامَكُمْ . . . (١)** ← **سرفهم المخالفين** فحين عمل الماليك في آخر عهدهم بنقض تلك الآية سلط الله عليهم عدوهم وكذلك سلط عليهم أنفسهم . فزالت دولتهم برغم ما حققت من مثل عليا وانتصارات مدوية ، وتلك حكمة الله في خلقه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيد الخير وهو على كل شيء قدير . (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

والحمد لله أولا وأخيرا

قائمة المراجع

قائمة المراجع

(١)

- ١ - إبراهيم علي شوقاوي - مصر في عصر المماليك الجراكمة - مكتبة النهضة - ١٩٦٠ م ٧٨ .
- ٢ - السيوطي - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - مطبعة الموسوعات .
- ٣ - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى - د / فايد عاشور - دار المعارف بمصر .
- ٤ - القرمانلي - أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ - عالم الكتب بيروت مكتبة المتنبى بالقاهرة .
- ٥ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي - ابن تغري - تحقيق محمد محمد أمين ، سعيد عبد الفتاح عاشور - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .
- ٦ - ابن كثير - البداية والنهاية - دار الفكر العربي .
- ٧ - الديناري - سيرة الملك الظاهر بيبرس - بيروت .
- ٨ - ابن تغري - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية العامة .
- ٩ - أحمد شلبي - الخلافة العباسية - دار النهضة . ١٩٨٢ .
- ١٠ - إبراهيم حنين سعيد - البحرية في عصر بلاطين المماليك - دار المعارف .
- ١١ - المقرئ - السلوك لمعرفة الملوك - القاهرة ١٩٧٠ .
- ١٢ - أبو زهرة - ابن تيمية حياته وآراءه الفقهية - دار الفكر العربي .

- ١٣ - البغدادي - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة - المكتبة العربية .
- ١٤ - أحمد فراخ - المعاليك الفرنج في القرآن التاسع الهجري - دار الفكر العربي .
- ١٥ - أبو زهرة - الحديث والمحدثون - دار الفكر العربي .
- ١٦ - م د / أحمد شلبي - الحروب الصليبية بدوها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن - دار النهضة المصرية ١٩٨٦ .
- ١٧ - ابن بطوطة - الرحلة - ط القاهرة ١٩٦٠ .
- ١٨ - أحمد صادق الجمال - الأدب الغامض في مصر في العصر المملوكي ١٩٦٦ .
- ١٩ - الجبرتي تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار - دار الجيل بيروت .
- ٢٠ - إبراهيم أحمد عبد الفتاح - القاموس القويم للقرآن الكريم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .
- ٢١ - ابن العبري - مسالك المعاليك .
- ٢٢ - أحمد شلبي - موسوعة التاريخ الإسلامي - مكتبة النهضة ١٩٩٠ .
- ٢٣ - العيني - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - تحقيق محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .
- ٢٤ - العبري - مسالك الأبحار في مسالك الأمصار - تحقيق دوردو تياكرا فلسكي ١٣٠١ هـ .
- ٢٥ - ابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب ج ٥ - دار الأنساق الجديدة بيروت .

- ٢٦ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج ٩ - دار الفكر - بيروت
- ٢٧ - ابن خلدون - مقدمته - دار الفكر .
- ٢٨ - الخطيب الجوهري - نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان
هاشر .
- ٢٩ - ابن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٨٤ .
- ٣٠ - ابن حجر العسقلاني - التاريخ والمنهج التاريخي - دار اقرأ -
١٩٨٤ .
- ٣١ - الذهبي - الكيثر - مكتبة المتنبى .
- ٣٢ - العيني - عمدة القاري في شرح صحيح البخاري - مطبعة البابي
الحلبي .
- ٣٣ - القلقشندي - صبح الأعشى ج ٣ - الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٧٧ .
- ٣٤ - ابن الغدا - المختصر في أخبار البشر - ج ٤ - بيروت .
- ٣٥ - ابن حجر العسقلاني - أنباء الغرب بأبناء العمر - تحقيق
د / حسن خيشي - القاهرة ١٩٧١ .
- ٣٦ - السيد ولیم مہر - تاريخ دولة المالک البحرية - ترجمة
محمود عابدين وسليم حسن - دار المعارف القاهرة .
- أول دورانت - قصة الحضارة - عصر الإيمان ج ٢ - تحقيق
دور دورانت ونيكولا فلينكي ١٣٤٩ م .
- د / أحمد مختار العباد - قيام دولة المالک الأولى في
صر والشام - مؤسسة شباب جامعة الإسكندرية ١٩٨٢ م .

(ب)

- ٣٧ - بيمرس المنصوري - التحفة السلوكية - تحقيق د / عبد الحميد
ضالح حمدان - القاهرة ١٩٨٧ .
- ٣٨ - بطرس البستاني - دائرة المعارف ج ٩ .

(ج)

- ٣٩ - جمال الدين سرور - دولة الظاهر بيمرس - دار الفكر
العربي ١٩٦٠ .
- ٤٠ - د / جمال عبد الهادي - أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ
الطريق إلى بيت المقدس - الوفا للطباعة والنشر .
- جوزيف نسيم يوسف - هزيمة لويس التاسع من الأرض المقدس
دار الكتب الجامعية ١٩٧١ .

(ح)

- ٤١ - حامد غنيم أبوسعيد - الجبهة الإسلامية في عصر الخسروب
الصلبية ج ٣ - دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٤ .
- حامد زيدان - صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة
المماليك - دار الثقافة ١٩٧٩ م .
- ٤٢ - جورج زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي - ج ٤ - دار الهلال .

(د)

- ٤٣ - راسم رشدي - صر والشراسة - القاهرة ١٩٤٨ .

- ٤٤ - سهام مصطفى أبو زيد - الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح
العربي إلى نهاية العصر المملوكي - الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٨٦ .
- ٤٥ - محمد ماهر - ساجد مصر وأولياؤها الصالحون - ج ٣ ، ص ٤
القاهرة .
- ٤٦ - د / سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية صفحة شرقية
في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى - دار الفكر
العربي ١٣٦٥ هـ .
- ٤٧ - سليمان محمد الطماوى - نظام الحكم والإدارة في الإسلام -
دار الفكر العربي .

- ٤٨ - شحاته عيسى إبراهيم - القاهرة تاريخها ونشأتها - دار الهلال

- ٤٩ - د / على أحمد الخطيب - مجلة الأزهر عدد مايو ١٩٩٣ .
- ٥٠ - د / عبد النعم عبد الماجد - طومان باي آخر سلاطين المماليك
في مصر - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ .
- ٥١ - على إبراهيم حسن - تاريخ المماليك البحرية - النهضة المصرية
ط ٣ - ١٩٦٧ .
- ٥٢ - على مبارك - الخطط التوفيقية - ج ١ - الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٦٩ .

- ٥٣ - د / علي السيد علي - القدس في العصر السلوي . دار الفكر للدراسات والنشر .
- ٥٤ - د / عبد الطيف حمزة - الحركة الفكرية في مصر - دار الفكر العربي - ١٣٦٥ .
- ٥٥ - د / عبدالغني محمود - التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك - دار المعارف .
- ٥٦ - د / علي سالم النباهين - نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك دار الفكر العربي .
- ٥٧ - د / عبد الرحمن الوافعي - مصر في العصور الوسطى - دار النهضة . ١٩٧٠ .
- ٥٨ - عبد الرحمن الجزيري - الفقه على المذهب حاشية - دار الفكر العربي .
- ٥٩ - د / عبد الكريم زيدان - أصول الدعوة - مكتبة القدس .
- ٦٠ - عبد الرحمن الجبرتي - تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار - دار الجيل بيروت .
- ٦١ - علي محفوظ - الإبداع في ضار الإبتداع - دار الإعتصام .

(ف)

- ٦٢ - د / فايد حماد عاشور - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة السلوكية الأولى - دار المعارف ١٩٨٢ .
- ٦٣ - د / فؤاد عبد المعطى - المغول في التاريخ - من جنكشيز خان إلى هلاكو - القاهرة ١٩٦٠ .

- ٦٤ - فتحة النجوى - تاريخ النظم الإسلامية - دار النهضة
العربية ١٩٨٠ .

(ق)

- ٦٥ - د / قاسم عبده - دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصير
سلاطين المماليك دار المعارف ١٩٨٣ .

(ك)

- ٦٦ - كمال الدين صالح - العمارة الإسلامية - القاهرة .

(م)

- ٦٧ - د / محمد أحمد دياب - محاضرات في تاريخ الدعوة الإسلامية -
أسنوط .
- ٦٨ - د / محمد يوسف موسى - ابن تيمية - الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٧١ .
- محمود شلتوت - السيف المهند في سيرة الملك الناصر -
دار الكتاب العربي ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ .
- ٦٩ - د / محمد محمد أبو زهرة - ابن تيمية حياته وآراءه الفقهية
دار الفكر العربي .
- ٧٠ - د / محمد جمال الدين سرور - دولة الظاهر بيبرس دار الفكر
العربي ١٩٦٠ .
- ٧١ - محمد عبد العزيز مرزوق - الناصر محمد ابن قلاوون - المؤسسة
المصرية العامة .

- ٧٢ - محمد محمد أمين - الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر - دار النهضة العربية - ١٩٨٠ .
- ٧٣ - محمد بن علي الإسحاقى - أخبار الأول فى من تصرف فى مصر من أرباب الدول القاهرة .
- ٧٤ - د / محمد كمال الفقى - الأدب فى العصر المملوكى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .
- ٧٥ - محمود رزق سليم - عصر سلاطين المماليك - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٧٦ - محمد الغزالي - ليس من الإسلام - مكتبة وهبة .
- ٧٧ - محمد الغزالي - خلق المسلم - دار الكتب الإسلامية .
- ٧٨ - د / محمد رفعت ومحمد حسونة - معالم تاريخ العصور الوسطى الطبعة الأميرية ببلاق ١٩٣٤ .

(ن)

- ٧٩ - نظير حسان سعداوى - صور ومظالم من عصر المماليك - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .
- ٨٠ - د / نعيم زكى - طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب قسسى أواخر العصور الوسطى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

(و)

- ٨١ - وليم موير - تاريخ المماليك البحرية - مطبعة المعارف القاهرة .

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
شكر وتقدير واجلال	
المقدمة	أ - ٢
<u>الباب الأول : الماليك</u>	١
<u>الفصل الأول : نشأة الماليك</u>	١
- أصل الماليك	١
أولا : ظهور الماليك في العالم الإسلامي	٣
ثانيا : ظهور الماليك في مصر	٣
ثالثا : طريقة ترتيبهم	٣
رابعا : كيفية انتقال السلطة من الدولة الأيوبية إلى الدولة المملوكية	٥
خامسا : العوامل التي ساعدت على نشوء دولة الماليك	١٠
<u>الفصل الثاني : الحالة السياسية والحياة الاجتماعية في العصر المملوكي</u>	١٤
أولا : الحالة السياسية في العصر المملوكي	١٤
ثانيا : الحالة السياسية بعد عودة الخلافة العباسية	١٦
ثالثا : الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي	١٧

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الثالث : الحركة العلمية في العصر المملوكي	٢٩
أولا : التعليم في المكاتب	٣٠
ثانيا : التعليم في المدارس	٣١
ثالثا : المساجد	٣٥
* مظاهر ازدهار الحركة العلمية في (العصر المملوكي)	٣٧
<u>الباب الثاني : المظاهر العامة للدعوة الإسلامية في العصر المملوكي</u>	٤٢
الفصل الأول : دور سلاطين المماليك في خدمة الدعوة الإسلامية	٤٢
أولا : إحياء الخلافة العباسية	٤٣
ثانيا : محاربة الفساد	٤٣
ثالثا : محاربة البدع والفتن	٤٨
رابعا : القضاء على فرقة الخشاشين بسوريا	٥١
خامسا : الدعوة إلى الله بالسلوك وأعمال البر	٥٣
سادسا : إعمار المساجد	٥٧
سابعا : إكرام العلماء والدعاة	٥٩
ثامنا : تعظيم الأماكن المقدسة	٥٩
تاسعا : تربية النشء من المماليك تربية إسلامية	

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الثاني : دور سلاطين المماليك في الدفاع -----	
عن البلاد الإسلامية	٦٥
أولا : الجهاد ضد التتار	٦٦
* بداية الصراع بين المماليك والمغول	٦٧
* معركة عين جالوت	٦٩
* نتائج معركة عين جالوت	٧٠
* مسيرة الجهاد ضد المغول بعد	
عين جالوت	٧١
* موقعة حمص	٧٢
ثانيا : الجهاد ضد الصليبيين	٧٤
ثالث : جهاد المماليك مع البقايا الصليبية	
في الشرق	٧٥
* المماليك وأرمينيا الصغرى	٧٥
الفصل الثالث : الفتوحات الإسلامية في العصر -----	
الملوكي وأثرها في خدمة الدعوة الإسلامية	٧٧
أولا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس	٧٧
١ - فتح قيسارية الشام	٧٨
٢ - فتح أرسوف	٧٩
٣ - فتح صدد	٧٩

الموضوع	رقم الصفحة
٤ - حملات تأديبية	٨٧
٥ - فتح أنطاكية	٨٢
٦ - فتح حصن الأكراد وحصن عكار القرنين	٨٣
ثانيا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد السلطان قلاوون	٨٤
١ - فتح المرقب	٨٤
٢ - فتح طرابلس	٨٥
ثالثا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الأشرف خليل	
ابن قلاوون	٨٦
١ - فتح عكسا	٨٦
٢ - نهاية الصليبيين بالشام	٨٨
* نتائج الفتوحات الإسلامية في عصر سلاطين	
المماليك	٨٩
الفصل الرابع : أبرز علماء العصر المملوكي وأثرهم في	
نشر الدعوة الإسلامية	٩٣
١ - العزيز بن عبد السلام	٩٥
٢ - ابن تيمية	٩٨
٣ - ابن حجر العسقلاني	١٠٤
٤ - جلال الدين السيوطي	١٠٧
٥ - بدر الدين العيني	١٠٩

الموضوع	رقم الصفحة
<u>الباب الثالث :</u> الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط	١١١
<u>الفصل الأول :</u> مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية	١١١
أولا : اتهام المماليك بالدكتاتورية	١١١
ثانيا : اتهام المماليك بالسكر والمجون والعريضة	١١٥
ثالثا : اتهام السلاطين المماليك باضطهاد أهل الذمة	
<u>الفصل الثاني :</u> نهاية الدولة المملوكية	١٢٢
* أسباب سقوط الدولة المملوكية	١٢٢
أولا : العوامل الداخلية	١٢٢
ثانيا : العوامل الخارجية	١٢٩
الخاتمة	١٣٤
قائمة المراجع	١٣٧
المحتويات	١٤٥